أيام زمان

مزمل سلمان غندور

مزمل سلمان غندور



الدار السودانية



الطبعة الاولى
١٣٩٤ هـ ـ ١٩٧٤ م

بسم الله الرحمن الرحيم

لقد اجمع علماء التربية بأن السنين الاولى من حياة الطفل لها أثر عميق فيما يعقبها من سني حياته اللاحقة ، وان الصور واللحظات التي عاشها قد تنطبع في ذاكرته البكرة كما تنطبع الصور على ورق التصوير الحساس ، وأيام زمان ما هي الا صور ارتسمت في ذهن طفل « عفريت » عاش طفولة سعيدة حافلة في أم درمان رأيت أن أعيد رسمها بالقلم على صفحات الورق ولم أفعل شيئا سوى أني نظرت فرأيت فكتبت وشكرا لذكرى عاطرة لايام خلت في زمان خلى ولن يعود .

مزمل

طريق الحياة

خرج على غير عادته من المنزل تاركا عربته مؤثرا المشي طلبا للرياضة والتأمل وترويحا للنفس ، مرت عليه سنوات لم تطأ قدماه أرض ذلك الطريق فهو من الذين أنعم الله عليهم بالسيارات منذ ما يزيد عن عشر سنوات ، وراعه ما رأى في الطريق ، رأى حفرا ملأها ماء (البلاعات) التي درج الخدم على رشها على « شارع الظلط » لكي تتبخر سريعا ولكنها بمرور الايام ولكثرتها أقامت حفرا متفرقة منها الكبير ومنها الصغير حتى أصبح الطريق عبارة عن مطبات متلاحقة ، تعوق السير على الاقدام كما تعوق سير العربات ، وزالت معالم « الظلط » كلية فأصبح لون الطريق داكنا أغبر لا هو بالطين ولا هو « بالظلط » ولا هو بالتراب •

تذكر أيام صباه عند ذكر التراب عندما كان هذا الشارع خالي من « الظلط » يكسوه تراب أم درمان الأحمر ، وكانوا عصبة من الصبية يلعبون كرة الشراب في أيام العطلات ويمارسون لعبة « شليل » « والرمه وحراسه » « وطير يا طير نعم نعمين » وغيرها من ألعاب الصبية في المساء في ذلك الزمان على ضوء لمبة الشارع •

تذكر لعبة شليل ، وكيف كانت أداة اللعب فيها عظم قديم زال عنه اللحم وابيض ، يقف الصبية في أول الشارع حيث يسطع الضوء من عمود الكهرباء ويحمل احدهم قطعة العظم وهي التي تسمى « شليل » ثم يصيح

في الصبية « شليل وينو » ويـرد الصبية « أكلوا الدودو » ثم يصيح الصبي « شليل وين راح » فيرد بقية الصبية « أكلوا التمساح » وهكذا ثم يرمي الصبي بالعظمة على مـدى قدرته نحو الجزء المظلم من الطريق ـ قد كـان الطريق خاليا في تلك الساعة في ذلك الزمان ـ ثم يجري الصبية كلهم نحـو اتجـاه العظمة يحاولون البحث عنها في الظلام حتى يجدها أحدهم وعندها يصيح الصبي ويجري نحو النور في أول الشارع ويحاول بقية الصبية اللحاق بـه وامساكه فاذا أفلت منهم وتمكن من الوصول الى أول الشارع تولى هو النداء ورمى العظمة واذا لحق به أحدهم أخذها منه ، وتذكر صاحبنا كيف انه في بعض الاحيـان كان يخفي العظمة عن الصبية ويرمي بدلا عنها حجرا ثم يذهب للبحث في منطقة الظلام لبعض الوقت حتى يغافل الجميع وينطلق راجعا الى أول الطريق وكيف ان كثيرا من الصبية يحاولون مثل هذه الخدعة ولكن بعض اخوانهم يضبطونهم ويوسعونهم ضربا وركلا .

ثم تذكر الرمه وحراسه ، وكيف ان الرمه هو الشخص الـذي يجلس متكورا على نفسه تحت ضوء عمود الكهرباء مدخلا رأسه بين ركبتيه ويديه ويقف حارس الرمه يزود عنها ضرب الصبية الآخرين الذين يجدولون قمصانهم أو عممهم في شكل حبال غليظة يضربون بها الرمه ، ويحاول حارس الرمـه الامساك بأحـد الصبية ، وقد يجري خلف أحدهم اذا ظن انه أسرع منـه تاركا الرمه في مكانها تحت وابل من ضربات الآخرين ، فاذا تمكن من القبض على احد الصبية حـل محل الرمه وتولى الصبي الذي كان « رمـه » مكان الحارس وهكذا ، وتذكر كيف ان بعض الصبية الخبثاء كانوا يضعون حجارة داخل عممهم المجدولة ويضربون بها الصبي المسكين الجالس كرمه فيؤلمه ذلك أشد الالم وقد يبكي الصبي ويترك اللعبة كلية وقد يتحمل الضرب ولكنه يحاول التأكـد من صاحب العمة ذات الحجر حتى « يتسدى » أي حتى ينتقم لنفسه منه عندما يأتي دوره ليمثل دور الرمـه .

وكيف كانت تزيد متعة اللعب في الليالي المقمرة •

ثـم سار صاحبنا في طرقات الحي يلف من شارع الى شارع ومن زقاق الى زقاق وتذكر لعبة « طير يا طير » وكيف ان الصبية كانوا ينقسمون الـى مجموعتين يدورون حول الحي في نفس هذه الازقة ويصيح بعضهم « طـير يا طير » ويرد البعض « نعم نعمين » فتصيح الجماعة الاولى « جيت من وين » فترد الثانية « من وادي حسين » فتصيح الاولى « قبضت كم يا طير » فترد الثانية « مية الا اثنين » فتصيح الأولى « والتاني ولدي على حصاني » وينطلق أفرادها راجعين الى حيث بدأ المسير وتجري الجماعة الثانيـة خلفهم يحاول كل واحد منهم اللحـاق بواحد من الجماعة الأولى فاذا تمكن من اللحاق به ركبه على ظهره حتى مكان البداية ، ثم تبدأ اللعبة مرة أخرى وتحل الجماعة الثانية محل الجماعة الأولى في الصياح •

هكذا غرق صاحبنا في اجترار الذكريات القديمة من أيـام زمان وهو سائر في الدروب المضاءة من مصابيح الطريق التي انتشرت في كل شارع ومن الانوار الكهربائية التي تنبعث من البيوت ؛ وتذكر عندما كانت الكهرباء في الطـرق فقط ، وكانت والدته تنظف لمبـات الجاز من العصر وتملأها بالجاز « وتوزن » أشرطتها حتى لا تدخن أو « تبقبق » •

بـدأ يفكر وهو سائر في الطريق عن مصدر المـاء الكثير في شوارع أم درمان هذه الايام ، وتذكر ايام زمان عندما كان الحمام كل جمعة ولم تـكن بالمنزل حمامات بالبانيو بل كان الحمام داخل الحجرات وبالطشت والجردل والكوز ، وكيف كانت والدته ترش الماء الناتج من الحمام على رمل الحجرة ليثبته ويزيد من برودتها ، وكيف كان غسيل الملابس مرة في الاسبوع •

تذكر ان هذا النوع من الحفر في الطريق كان قاصرا على شوارع خاصة ومعينة في أم درمان •• تذكر كل هذا وضحك ، ضحك لانه اشتاق الى رؤية

القمل ، لقد سأل والدته يوما وهو صغير عن انواع القمل فعرف ان القمل الابيض هو الذي يتواجد في « تكة » السروال اما القمل الاسود فهو قمل الشعر ، وضحك لانه كان يرى الفكي في الخلوة يخلع سرواله ويضعه في الشمس ويبقى « بالعراقي » وحده والتوب ، ولم يكن يضحكه ذلك في الماضي بل يحدث أن يأمر الفكي أحد الحيران بتفتيش تكة السروال لاخراج القمل منها ، ثم تذكر أن أولاده اليوم لا يعرفون القمل ولم يره واحد منهم .

سار في الطريق ساهما يفكر حتى انتبه فجأة لامرأة تخاطبه « سجمي يا ود بت حسن مالك ما بتسلم » وعندما تفرس فيها عرف انها جارتهم بنت المنا فحياها ولكنها أصرت على معانقته وتقبيل عنقه بحنان مثل ما كانت تفعل وهو صغير ثم ودعها وواصل السير وهو يذكر أيام زمان عندما كانت الطرق كلها من تراب وكان القمل في الرأس وفي السروال .. وكان الحمام مرة في الاسبوع وكانت الجارات يقبلن في الاعناق بكل حنان وكان المشي من المنزل الى السوق أمر عادي والمسافة كانت قصيرة فبعدت المسافة أو أنه احس بأنها بعدت لا لشيء الا لأنه تعب من المشي ولم يكن يتعب في الماضي ، فجاهد نفسه حتى وصل الى « سوق المويه » بحث عن قهوة الزيات فلم يجدها في مكانها القديم وآثر الجلوس في أول كرسي عند أول مقهى صادفه وبدأ يفكر بعد أن طلب زجاجة من (البيبسي) ، عرف وهو في هذه الجلسة أن طريق الحياة محدود المسافة مثل الطريق من المنزل الى (سوق المويه) ولكن الوسيلة والزاد هما اللذان يحددان البعد او القرب ، ومن أراد ان يطول به طريق الحياة فليمشه راجلا ويترك العربة في البيت ...

كشف الحقيقة

كان تفكيره علميا منذ نعومة أظفاره ، كثير السؤال بلماذا وكيف ، سأل والده عن النجوم والقمر والله والعذاب والجنة والنار ، وسأله لمـاذا يحس بالألم عندما تلدغه النملة السوداء ذات الريش والتي تخرج بالمئات من تحت الأزيار في الخريف ، ولمـاذا يحس بالمتعة عندما يمضغ الحلاوة ، وكان والده حكيما بالفطرة فبالرغم من أن الوالد لم يدخل المدرسة بـل تعلم في الخـلوة والشيوخ الا أن اجاباته كانت دائما مبسطة ومقنعة .

لم يكن هناك راديو او تلفزيون وكان الآباء يقضون جل وقتهم مـع الابناء ، وكان والده حكيما بلديا يصف « الشرب » لمرضاه من « الملقـاة » وهي نوع من الدواء يؤخذ لعلاج الامساك الذي كان يسمى في ذلك الزمان « اليبوسة » وكان يصنع الخلطات المقوية مـن عسل النحل وصفار البيض والحلبة ودقيق الدخن والتمر عندما لم تكن الفيتمينات قد عرفت بعد ، وقـد كان يخلع الضرس والسن ويجبر الفكك والكسر .

كان والده بالاضافة الى كل هذا يخط الرمل ، ولم يكن يخطه لطالبي الحاجات او مستفسري الغيب بل يخطه لنفسه ان أراد معرفة شيء ومنه عرف أسماء الرمل مثل الانكيس والجودلة والطريق وغيرها ، وقد قال لـه والده يوما أن الرمل علم قديم علمته الجن لسليمان ، وكان يعتقد ان والده يعرف كل شيء فحاول منذ تلك السن المبكرة ان يعرف كل شيء .

دخل المدرسة بالرغم من معارضة والده فقد اغتنمت والدته فرصة سفر والــده لبعض شؤونه الى بوادي كردفان فطلبت مــن خاله ادخاله المدرسة وعندما عــاد والده غضب غضبا شديدا مما اضطره للذهاب الى المدرسة في الصباح والى الخلوة بعد الظهيرة لعدة سنوات ، الأمر الذي أرهقه كثــيرا وأفاده كثيرا في أيامه اللاحقة . كان يجلس ذات يوم امام المدرسة مع صديق لــه في انتظار الجرس وكان قضيب الترام يسير امــام المدرسة وقــد اعتاد الترام عند التحرك من محطة « الملاحظ » يسير بسرعة فائقة أو مــا يسمى « كشه » حتى يشارف محطة « الظبطية » فخطر لــه خاطر شيطاني في تلك اللحظة التي رأى فيها الترام امام المدرسة وقال في نفسه اذا تمكن من اخراج الترام من هذا القضيب فسيضطر الترام الى السير على شارع الظلط ثــم بــدأ يسبح بخياله عما يحدث لو سار الترام بعجلاته الحديدية على شارع الزلط ، فأسعده هذا الخاطر ايما اسعاد ، فكاشف صديقه عن خواطره وبــدأ الصديقان يفكران في وسيلة لاخراج الترام .

كان الاعتقاد السائد أن الترام اذا انزلق من القضيب خرج عنه ، ففكر في وضع ابرة خياطة في كوز صلصة قديم من الزيت ولمــدة أربعين يومــا ــ ولا يذكر من قال لــه هذه الوصفة ــ فبدأ يعد الايــام على الحائط بقطعة من الطبشير اختلسها من الفصل وفي اليوم الحادي والاربعين وضع الابــرة على القضيب ووقف غير بعيد يرقب النتيجة وقلبه تزداد ضرباته كلما اقترب الترام من الابرة ولكن التجربة فشلت وأصابته خيبة أمل ، ولكن بــدأ يفكر وحــده وقضى الليالي الطوال يفكر ويفكر ثم توصل الى فكرة جديــدة تشاور فيهــا مع صديقه وبدأا في التنفيذ فقد أحضرا حجرا من القرانيت الصلب وبــدأا يحفران عليه ممرا بقدر عرض القضيب حتى عمقاه واستغرق ذلك أسابيع وأسابيع مستعينان بالحديد والحجارة ثم وضعا الحجر في يوم معين على القضيب وبدأت التجربة مرة أخرى وتحرك الترام من محطة الملاحظ

وبدأ الكشه وعندما وصل الترام الى مكان الحجر بدأ في القفز وتعدى القفز القاطرة الأمامية الى العربة التالية لها وبدأت النسوة في الصراخ وخرج الترام من القضيب ، صاح صاحبنا مثل صيحة ارخميدس عندما طفح الماء من حوض الحمام وصار يقفز من الفرح فقد أخرج الترام من القضيب ولم تطــل به الفرحة فقد ألقي القبض عليــه وعلى صاحبه واقتيدا على النــاظر بعد أن أوسعهما المــارة ضربا وركلا وهنالك لقيا من عصا الناظر أضعاف ما وجداه من المــارة ثم طردهما الناظر من المدرسة فلم يغضب ولم يحزن فقد سعد بأكثر مما يمكن أن يجلبــه له الطرد من ألــم ولكنه كان يحب المدرسة فصار يحضر كل يــوم حتى نهاية السنة الدراسية ويبقى بالمدرسة ويعود في نهاية اليوم حتى عطف عليه النــاظر في آخر الأمر وأعاده للمدرسة ، وأما صاحبنا فهو اليوم بناء يجيد البناء لا يعرف القراءة والكتابة ولكنه بالرغم من ذلــك ظــل دائما يعتقد ان السعادة الحقة لا تأتي الا باكتشاف الحقيقة ، وتــزداد السعادة كلما كانت الحقيقة خافية عــن الآخرين وخصه الله بها وحده .

للعــدل حُــدود

لقد أمتعه كثيرا اجترار ذكريات طفولته ، وصار المشي في شوارع الحي عادة محببة له ، ترك العربة كلية في الامسبات الا اذا دعته الضرورة لزيـارة مأتم او عقد زواج ، وأصبح مشوار السوق كل مساء عادة ملازمة لـه ، وفي يوم مر صاحبنا وهو في طريقه الى السوق بالمنطقة التي كانت تسمى في الماضي « بسوق القش » والتي لا زالت التسمية السائرة لهذا الجزء من الحي فوقف عند ناصية الطريق حيث يقوم اليوم عمود ابيض من الخراسانة هو عمـود الكهرباء والذي لـم يكن موجودا في ذلك الزمان ، وقف ونظر حوله للمنطقة التي قامت في طرفها البعيد مدرسة وبقي الجزء الاكبر منها فضاء تجمعت فيه النفايا والقاذورات ثم سرح بخياله الى أيـام زمان ، وتصور تلك الساحة عندما كانت « سوق قش » وتذكر (الحمرة) التي كانت الغـذاء الرئيسي للبهائم فلم يظهر البرسيم الذي ملأ الطرقات في هذه الايام ، وتذكر كيف ان بعض أجزاء « الحمرة » المتشابكة تدحرج في الشارع تدفعها الرياح وكأنها حشرة كبيرة ، ثم نظر خلوة شيخ حسن عن يمينه ورواكيب سوق القش عـن يساره وتذكر على حافة سوق القش كانت تقوم رواكيب قصاصي الحمير .

لقد كان الحمار في ذلك الزمان حيوان مقدر محترم ، وكان علية القوم وأكابرهم يقتنون الحمير الاصيلة البيضاء العالية ، وكان الحمار «الدنقلاوي» من أقيم واحسن الحمير ، وكان الناس يتحدثون عن الحمير وانواعها كمـا يتحدثون اليوم عن السيارات وأنواعها وتعداد محاسنها ومساوئها ، فهناك الحمار « الدنقلاوي » والحمار « الدبلاوي » وهناك الحمار « الفقر » الذي

يتشاءم منه صاحبه وهو الحمار الذي يحفر بحافره على الارض عند مربطه ويقولون انــه يحفر قبر صاحبه وسريعا ما يتخلص منه صاحبه بالبيع حتى ولو بالخسارة ، وكان الناس يتحدثون عن الحمير مثل حديثهم عن السيارات المرسيدس والبيجو والهلمان والشفرليه والتاونس .

وقص الحمير كان صنعة رابحــة في تلك الايــام ، فقد كانت فنا مــن الفنون يتقنه اصحابه ويعلمونه أبناءهم من بعدهم ، كما كان صوف الحمير يستعمل لصناعة البرادع ، والبردعة هي الحشية التي توضع تحت السرج لتقي الحمار مــن حك السرج على ظهره كما ان شد الحمير أمر يتعلمه الصبية حتى لا « يلهد » الحمار أو « يبوط » و (التلهيد) هو الورم الذي يحدث من حك ظهر الحمار أما (التبويط) هو الجرح الذي يحدثه الحك اذا لــم يسعف أو يعرف عند « تلهيده » كما أن (القطران) في ذلك الزمان كــان مــن الأدوية المهمة لكثير مــن الامراض البشرية والحيوانية ومــن ضمنها عــلاج جروح الحمير .

تذكر صاحبنا كل هذا وهو واقف عند ناصية الطريق وتذكر كيف كان القصاصون يتفننون في قص الحمير برسم أشكال هندسية زخرفية جميلة على رأس الحمار وحول أذنيه وعلى مؤخرته عند بداية الذيل ، كانوا لا يوجهون الحديث للزبون بــل يتبادلونه بينهم وبأصوات عالية ضاحكين على عشرات الملح والطرائف والنكات .

لقد درج النظام المتبع في منزلهم ان يكون للأواني اصحاب وللغنم والبقر في البيت أصحاب وللدجاج والحمام أصحاب فقد كانت عنزته الامريكانية الحمراء معروفة للجميع بــأن هذه عنزة فلان ، ويعتقد انهــا جلبت من السوق عند فطامته فقد كانت الفطامة عــلى لبن الغنم وليس على اس ام اي أو كامي وكذلك يذكر سلطانيته الصغيرة المشجرة التي كان يأكل فيها عصيدة الدخن باللبن وعليها خيط من السمن تذكر كل هذا وفجأة أحس بمغص وألم فقد تذكر شيئا

آخر كان ذلك عصر يوم من أيـام عطلة المدرسة ووالده لا زال في السوق ، وكانت والدته تستضيف بعض النسوة وهي منهمكة معهن في حديث كثـير معقد فطلب من والدته مليما لشراء حلوى وكرر الطلب ولكنها نهرته وأمرته بالابتعاد ثـم عاد وكرر الطلب لأن صاحب « حلاوة كشكوش » لا زال واقفا في الطريق « يكشكش » ولكن والدته أمرته بالابتعاد بكل خشونة ، جلس يفكر فخطر على رأسه الصغير خاطر قام بعده وطارد دجاجته الصفراء حتى تعبت واختفت تحت الدوكـة فأدخل يـده وأخرجها بعد ان امتلأ جلبابه « بالسكن » وحمل الدجاجة المرهقة الى سوق القش وعرضها على أول راكوبة من رواكيب قصاصي الحمير فدفع لـه القصاص قرش ونصف ثمنا لدجاجته فرح بالثمن فاشترى حلوى وكانت تسمى (حلاوة بقر) واشترى بسكويت واحتفظ بقرش ورجع الى المنزل فرحا يمضغ الحلوى فوجد النسوة قد تفرقن فسألته والدته من أين لـه الحلوى ــ وكانت تنهاه عن أخذ أي نقود مـن الغرباء ــ فـرد عليها ببراءة أنه باع دجاجته الصفراء بقرش ونصف واشترى الحلوى ثـم قدم لهـا الباقي ٠

لـم تسأل أكثر من هذا لأن والده كان قـد عاد من السوق وهـي تعرف أن والده لا يقبل أي قسوة على ابنه الحبيب ، وقضى ليلة في غايـة السعادة وما كان في اليوم التالي من والدته الا أن أرسلت الى أخيه الكبير لأبيه في البيت المجـاور بعد أن غـادر الأب المنزل للسوق وحكت له القصة وأمرته بضربه ، فعلقه اخوه من رجليه ويديه عـلى عارضة الراكوبة وطفق يضربه بكرباج لـه عدة ألسن وهو يصرخ ثـم انزله بعد ذلك وهو يعتقد بينه وبين نفسه أنه ظلم غاية الظلم وأن هذه غاية القسوة الا انه أدرك أن العقاب على الجرائم لا يرتبط قط بما يعتقد الشخص أنه ظلم او عـدل ولكنه يرتبط بما يعتقده الآخرون والحب والحنان لا صلة لهما بالقسوة فقد عرف فيما بعد أن حب أمـه له بـلا حدود ٠

القنبور

كانت والدته تلد البنات فقد ولدت ثلاثة فتيات ولم تلد ولدا ثم مرضت لفترة من الزمن ثـم وضعت ولدا جميلا بعث البهجة والسعادة والسرور في كل البيت ولكنه سقط وهو في عامـه الاول من أعـلى كومة من الطوب الاحمر كانت خارج المنزل (فدق عنقه ومات) كما تقول روايات الجيب أيام زمان ، فأصاب العائلة حزن عميق ، وربط والـده وسطه بعمامته وانتحب وأظلمت الدنيـا أمام عيني والدته ومرت الأيام فوضعت والدته ولدا قرر الوالدان ألا يعاملانه كما عاملا الابن الاول خوفا من العين فألبساه الدمورية بدلا من (الكربديشين والتولدسوا) وحلقا رأسه بالموس بعد أن اكمل شهره السابع وواصلا الحلاقة بالموس ولكنهما تركا في مؤخرة رأسه خصلة من الشعر صار الحلاق يلف حولها حتى أصبحت (قنبورا) وعاش صاحبنا ولم يمت ووضعت والدته ولدا ثانيا وثالثا ورابعا عوملوا جميعا نفس المعاملة ، قميص وسروال من الدمورية ، وقنبور في مؤخرة الرأس ، وحرمان من الاحذية كل ذلك لكي يعيشوا وعاشوا بحمد الله ونعمته • وقد نـذر القنبور للسيد أحمد البدوي شيخ العرب وساكن طنطا لأنهـم أصلا من الاعـراب وان اسلافهم هاجروا مـن الريف •

لقد كان القنبور مصدر ازعاج شديد لـه فقد صار خصلة طويلة مـن الشعر حتى ظهره ، فكان يلفه في حلقة مستديرة ويغطيه بالطاقية ، وفي فترات

العراك مع اقرانه من الصبيان ، وكثيرا ما يحدث ذلك ، كان الصبيان يحاولون الأمساك بالقنبور فان تمكنوا من ذلك فقد شلت حركته وصار الصبية يتناوبون فيه ضربا وركلا وقرصا ، وكان يتحمل ذلك صامتا ثم ينفض الجميع ويقضي اسبوعا كاملا يرسم الخطط للانتقام من الصبية حتى يتمكن من الانفراد بهم واحدا واحدا وعندها يتفنن في الانتقام فيطرح الصبي أرضا ويملأ له فمه بالتراب الساخن ويسجل انتصاره بعضة شديدة ترتسم بعدها أسنانه الحادة على ظهر الصبي تبقى لعدة أسابيع .

وكان يذهب مع اثنين من اخوانه الى خلوة مرفعين الفقراء بالعباسية حيث يتلقى مبادىء القرآن من شيوخ أجلاء من بينهم شيخ الزين وشيخ الصديق وغيرهم وقد يكون النهار ساخنا فيقضي اليوم كله مع عائلة مرفعين الفقراء يتغدى معهم بملاح الفول وفي بعض الأحيان يأكلون العصيدة بالماء والشطة والملح وقليل من الزيت وكان يحب تلك الأكلات ويفضلها على ما يأكله في منزله ، وفي عصر احدى الأيام وهو في طريق عودته مع اخوانه الى المنزل عرجوا كعادتهم على شجر اللالوب الذي كان يكثر في العباسية وحول المنازل المستديرة التي بقيت في تلك المنطقة منذ المهدية وصوب حجرا نحو لالوبة صفراء في أعلى الشجرة فأصابها وسقطت تحت الشجرة فدخل لاخراجها وفي تلك اللحظة رمى اخوه حجرا آخر فأسرع خارجا من تحت الشجرة خوفا من الحجر وعندها انغرزت شوكة طويلة في قدمه الحافي فجلس خارج دائرة الشجرة وحاول اخراجها ولكنها انكسرت داخل القدم ، وعاد الجميع الى المنزل ولم يخبروا أهلهم بالشوكة وفي منتصف الليل استيقظ عن آلام حادة في قدمه وصار يبكي حتى استيقظت والدته فشكى لها وفي الصباح حاولت والدته اخراج الشوكة بأبرة فلم تفلح فوضعت عليها قليلا من الشمع الذي يتكون في الاذن والذي يسمى (وسخ الاضان) وصار يتألم لعدة أيام ولم تخرج الشوكة فأخذوه لمستشفى الارسالية الانجليزية ، حيث أجرى

لـه الدكتور رايت عملية جراحية تحت البنج الكامل ووضع قطعة من القطن وطلب منه أن يعد من واحد حتى عشرة وعندما وصل ثمانية نسي كل شيء •

وبعد العملية لم يخبره أحـد بما حدث لقدمه وهل خرجت الشوكـة اللعينة أم لم تخرج ، ولـم يسأل خوفا من خيبة الأمـل وظل طريح الفراش أسابيع ، عقد صداقات عديدة مـع عمال المستشفى ، فهناك (خالتي الرحمة) المرأة التي تنظف العنبر وتلمعه بحماس وعناية كأنه بيتها ، وهناك ابراهيم اللوري ـ وهذا اسمه ولقبه ـ وهو التمرجي المسؤول عن العنبر ، وهناك خارج دائرة العنبر شيخ سليمان الباشتمرجي وكبير الممرضين ، رجل وقور لـه شخصية محترمة ، ثـم هناك المبارك ابراهيم المسؤول عـن الكروت والتذاكر في العيادة الخارجية والذي كان صاحبنا يلاحظ عليه منذ ذلك الزمان البعيد ، قراءته للكتب والصحف المصـرية مثل الرسالـة والثقافة والشعلة وغيرها ، عرف كل هؤلاء وصاروا يحبونه ويسألون عنه ، كما عرف الاطباء الانجليز وكانت أمتع الاوقات عنده عندما يأتي التمرجي ويأخذه الى عنبر كبير في المساء لمشاهدة الفانوس السحري ، فقد كان هناك عرضا اسبوعيا للفانوس السحري تعرض فيه قصة المسيح وميلاده ومريم العذراء وكانـوا يسمونه يسوع كما كان هناك شرح لكل الصور التي تعرض على شاشة كبيرة في آخر العنبر ، ولم يكن يعلق أهمية كبيرة على نتائج رؤيته لهذه القصص فقد كانت متعته بها تنحصر في جمالها ولكنه من غير ما يدركه فقد عـرف وجهة النظر المسيحية عن المسيح وأمه ويوسف النجار وما الى ذلك منذ ذلك التاريخ المبكر ، وعندما عاد الى منزلهم سأل والده عن هذه القصص وكـان والده واسع الصدر كثير الحديث معه وقد أفهمه والده اننا يجب ان نؤمن بالمسيح كرسول ولكنه ليس ابن الله كما قال (ناس الارسالية) وعلمه أبوه بهذه المناسبة الكثير عن الدين وقصص القرآن •

وقد كان يرى عددا من الصبيان والبنات من سنه يحضرون هذه الامسيات ولكنهم كانوا يحضرون معا من ملجأ الارسالية وكلهم سودانيون سمر اللون الا انهم كانوا يعلقون الصليب في صدورهم وعرف من السؤال انهم مسيحيون وان الارسالية هي التي تتبناهم ومعظمهم مجهولي الآباء وربما الامهات وعندما سأل والـده عنهم أفهمه بلغـة مبسطة أن آباءهـم سيحملون وزر خطئهم يـوم القيامـة •

وبعد أسابيع في المستشفى فكت الاربطة مـن قدمه ولكنه ظل يحس ببعض الألم وقد وضعت (لزقة) صغيرة على مـكان (الشوكة) أما جرح العملية فقد التأم وذات صباح حضر الدكتور رايت وسلم عليه واعطاه بعض الحلوى ثـم بكل رقة أزال (اللازقة) عـن المكان وضغط ضغطا خفيفا على جانبي مكان الشوكة فاذا بها تخرج سوداء طويلة من قدمه وفي لحظتها أحس براحـة طاغية أنسته كل آلامه التي عاناها ثم التفت اليه الدكتور رايت وقال لـه (مبروك) وأعطاه بعض الحلوى مرة أخرى وخرج •

بقي في المستشفى عـدة أيام كان يحس من خلالها احساس المفـارق ، احساس غريب فيه الفرحة وفيه الألم لفراق أصدقاء أحبهم وأحبوه فترة طويلة وذات يـوم حضرت خالة لـه وأخذته الى منزلهم تحت وابل مـن القبلات والوداع الحـار من كل أصدقائه بالمستشفى وقد ظل سنوات يمر على هؤلاء الاصدقاء كلما سنحت الفرص حتى شغلته مشاكل العلم والتحصيل فنسيهم أو كاد ولكن ذكرى أيامه الصعبة وايامه الحلوة بمستشفى الارسالية بقيت عالقة بذهنه لأنها علمته الكثير من الحكمة والعاطفة والثقافة والادراك وكان يقول دائما « رب ضارة نافعة » •

خلوة شيخ محمد

خلوة شيخ محمد تقع في زقاق ضيق شمال مدرسة أم درمان الاميرية الوسطى ، خلوة عتيقة بابها من السنط القديم الذي احالته عوامل التعرية الى لون أبيض داكن وفي داخلها صالة او برندة طويلة هي عبارة عن الخلوة وأمام تلك البرندة أو الصالة فناء صغير يتدفى فيه الصبية في وقت الشتاء بالجلوس بالقرب من الحائط وشد قمصانهم الدمورية فوق ركبهم حتى تغطي أقدامهم وقد يستعمل بعضهم هذه القمصان المشدودة نبالا بأن يضع أحدهم يــده داخل القميص المشدود ويمسك بأصابعه نواة جافة من التمر ثم يشد القميص الــى الخلف ويطلقه فتندفع النواة كالقذيفة ، وقــد تصيب احــد الصبية وقــد لا تصيب .

وشيخ محمد رجل أسود اللون طويل القامة يميل الى النحافة وغالبا ما يكون قــد انحدر من أصل شايكاوي او دينكاوي ولكنه حفظ القرآن وقام بتدريسه لعشرات بــل مئات من الصبية منذ العشرينيات وتخرج على يــده أجيال منهم قبل أن يدخــل صاحبنا زائرا لتلك الخلوة في أوائــل الثلاثينيات ولمــا بلغ الخامسة من عمره ، لقد أخــذه معه احد ابناء عمومته الى الخلوة وانطبقت صورة شيخ محمد في ذهنه كما وصفتها لكم في أول الحديث وكان صاحبنا في وقتها لا زال يلبس حجلين من الفضة الرقيقة حول

كعبيه ويعلق على صدره (حفيضه) من الفضة نقشت عليها أرقام وحروف في مربعات تشبه السيجة كان من المفروض أن تكون رقية تحفظه من العين ومن كل الشرور وقد سميت (حفيضة) تحريفا لحفيظة للحفظ ، ذهب صاحبنا الى الخلوة فرأى في ركن من تلك الصالة قفص صغير من السلك والخشب وبداخله أحد الصبية ، وعرف فيما بعد أن هذا القفص هو الزنزانة والتي يدخل فيها شيخ محمد أي صبي (يقيم) بتشديد الياء وكسرها لوحه والتقييم بتخفيف القاف عبارة عن العجز عن حفظ اللوح من القرآن والذي يجري تسميعه يوميا والتأكد من حفظه لدى الشيخ قبل غسله وكتابة لوح جديد .

وقد رأى صاحبنا الصغير في ذلك اليوم من الاهوال ما انطبع في ذاكرته لسنين طوال فقد أحضر أحد الآباء ابنه وقال للشيخ (لك اللحم ولنا العظم) فقام الشيخ وأحضر الفلقة وهي عود من الخشب متوسط السمك يربط عليه حبل في مكانين حتى تتكون من الحبل نصف دائرة والعود كقطر لها ، ويقوم الشيخ بادخال اقدام الصبي في نصف الدائرة الحبلية والصبي راقد على الأرض رافع ساقيه الى أعلى ، ثم يلف الشيخ العود في حركة دائرية يضيق على أثرها نصف الدائرة تدريجيا وينجدل الحبل شيئا فشيئا حتى يعجز الصبي عن تحريك قدميه ثم يأمر اثنين من الصبية الكبار بمسك الفلقة من جانبي العود وللفلقة عدة أسماء منها (أم سعد الله) ولا أدري كيف تمت هذه التسمية ومن هو سعد الله هذا كما أن اسمها (الرفاعة) كناية لما تفعله بأقدام الصبية .

رأى صاحبنا هذا المنظر ، ثم وقف شيخ محمد وقفة جانبية وصار يضرب قدمي الصبي بسوط غليظ والصبي يصيح (عليك النبي يا سيدنا ، عليك الرسول يا سيدنا) وسيدنا يضرب الصبي دون رحمة ظاهرة حتى يصيح الصبي (تبت يا سيدنا) (تبتا) مع مدة طويلة

للتـــاء والدمــوع تسيل عــلى جانبي خــده حتى تسـلأ أذنيــه ثــم تسيل على رمل الخلوة الناعم ، وعندما رأى صاحبنا هذا المنظر الذي انحفر في ذاكرته صرخ بأعلى صوته وصار يصرخ حتى توقف شيخ محمد عن الضرب وأمر ابن عمه بأخذه الى البيت وعندما هم ابن العم بأخذه من يده الصغيرة ليقوده خارج الخلوة لحقه شيخ محمد بضربة من سوطه على قفاه أخذها ابن العم (على اللبادة) كما يقول الصبية كما يفعل الحمار ان وقعت عصا الراكب على اللبادة وليس على ظهر الحمار .

ومرت سنوات رفض خلالها دخول خلوة شيخ محمد مع بقية صبية الحي لأنها كانت تمثل في ذهنه كل صنوف القسوة والتعذيب ، وشيخ محمد يمثل في ذهنه ماردا أسود طويلا من زبانية الجحيم ، وارتحل صاحبنا مــن حي البوسته القريب من خلوة شيخ محمد وكبر وبقي بعض الصبية في خلوة شيخ محمد التي بدأت أيامها الزاهرة في الزوال وقدمت الــى الحي نسوة مشبوهات تسللن من كوستي ومدني وغيرها من مدن السودان ، وقل اقبال الصبية على خلوة شيخ محمد ولكن ظــل يعلم القرآن ومبادىء القــراءة والكتابة غير مهتم بما يدور حوله في ذلك الحي وتشجع صاحبنا يوما فذهب في احدى عطلات المدرسة مع بعض اقربائه الى خلوة شيخ محمد فوجدها كما كان يتخيلها منذ سنين طوال ، ولكن شيخ محمد قد أصابه بعض الملل وقل عدد الصبية ، وصادف ذلك اليوم يوم زيارة الشيخ حمد النيل ولي مدفون في غرب أم درمان وان شيخ محمد درج على زيارة أولياء الصوفية وقــد لاحظ في ذلك اليوم أن شيخ محمد يجمع التعاريف والملاليم من بعض الصبية ثم يعطيهم بدلا عنها عــدة تمرات أو لالوبات كما لاحظ أن بعض الصبية قــد دفنوا تعاريفهم أو ملاليمهم في الشارع قبل الدخول الى الخلوة خوفا من أن يأخذها منهم شيخ محمد ، ولكن حدثه أحد اقربائه بأن هناك خطــرا آخر وهو أن بعض أشقياء الصبية يقومون بتحفير الارض تحت الحائط بحثا

عــن تعاريف الصبية وغالبا ما يعثرون على بعضها فتضيع على صاحبها ، فلا هو استفاد منها بشراء الطعمية من أم داود التي تبيع الطعمية بالقرب مــن حائط مدرسة أم درمان ، ولا استفاد منها شيخ محمد .

خرجت النوبة من الخلوة يحملها أحــد الصبية ويسير أمامها شيخ محمد بهامته الطويلة ويحمل عصاة طويلة ويسير الصبية خلفه في زفة كبيرة والكل يردد المديح مع نقر النوبة الرتيب المنتظم ، وقــد تأخر الجمع قليلا أمام الخلوة بحثا عــن الشبر والشبر هذا عبارة عن قطعة رقيقة وقوية مــن سعف النخيل الجاف مقاسه باليد كشبر يمسك بها حامل النوبة بيده اليسرى ويلصقها بالجلد المشدود وهو ينقر النوبة بيده اليمنى فينبعث من الشبر مع نقرات النوبة رزة حلوة تعطي نقر النوبة رنينا نافذا الى أعماق الصدر فقد كان يخيل اليه انه يسمع نقر النوبة بصدره لا بأذنيه .

سار الجميع حتى وصلوا الى حمد النيل حيث انتظمت حلقــة الذكر بالقرب مــن ضريح الولي واستمر لساعة من الزمان ثم عادوا جميعا كمــا ذهبوا وقــد انتشوا بخمر روحي لذيذ .

ومرت سنوات واذا بالحي تزدحم فيه النسوة المشبوهات ويتضاءل عدد الصبية حتى يبلغ أصابع اليد وتسوء حال الشيخ المالية ، وتندلع الحرب ، واذا بشيخ محمد يذهب الى مركز التعليم الشمالي جنوب أم درمان بالمنطقة العسكرية ويتجند كجندي باحدى وحدات قوة دفاع السودان ويرسل الى الشرق الاوسط وتنقطع اخباره ردحا من الزمان ثم تتناقل الانباء وفاة شيخ محمد رحمه الله رحمة واسعة بقدر ما علم من الصبية ومــن آيات القرآن الكريم وبقدر ما أدخل في زنزاتته ورفع بأم سعد الله .

شيخ حسن

بالقرب من سوق القش وعلى الجانب الشرقي كانت تربض خلوة شيخ حسن ، باب صغير منخفض وحجرتان احداهما على يسار الباب والاخرى على يمينه ولكل منهما باب آخر منخفض جدا وبكل حجرة عدة (طاقات) للتهوية فلم تكن الشبابيك في الماضي بالشيء الطبيعي في مستوى هذا النوع من البناء وكانت أرضية الحجرتين تنخفض عن مستوى فناء الخلوة والسقف نفسه منخفض يكاد يلامس رأس شيخ حسن نفسه عندما يغضب واقفا والسوط في يده ، كانوا صبية صغار يحملون الالواح الخشبية ويتصايحون كل يقرأ ما في لوحه مئات الآيات المتباينة تمتد من الناس وحتى الكهف وتبدأ القراءة بصياح شديد عندما يدخل الفكي ثم تنخفض تدريجيا حتى تكاد تكون همسا ثم يرفع الفكي سوطه ينادي (فوق •• فوق) ويبدأ الصراخ (الهاكم التكاثر) ، (والقمر اذا تلاها) ، (ويل يومئذ للمكذبين••) وفجأة تصل الى الانوف رائحة من نوع ما فيتململ الصغار وتنخفض الاصوات ثم يتكلم صبي شجاع (فس يا سيدنا) وعندها يوقف الفكي القراءة ثم يأمر الجميع بالوقوف ويطلب منهم المرور أمامه ويبدأ في ادخال أنفه بين العراقي وصدر كل واحد من الصبية الصغار وهم يرتجفون خوفا ورعبا وعندما يصل الى المسكين سيء الحظ تسمع طرقعة السوط على ظهره في سرعة البرق فيصيح المسكين (تبت يا سيدنا والله العظيم تبت) فلا يهتم

الفكي بالصياح ويلاحقه بثلاثة أو أربعة سياط ثم يأمر الجميع بالجلوس ويصيح فيهم (فوق •• فوق •• فوق) ويبدأ الصياح من جديد •

وبالاضافة لحفظ القرآن كان شيخ حسن يعلم (حيرانه) شيئا من التوحيد والفقه فيحفظون عن ظهر قلب (متن ابن عاشر) ، كما كان يأمرهم بحفظ الاحاديث النبوية حتى أن صاحبنا قد حفظ (الاربعين حديثا النووية) وهو في خلوة شيخ حسن كما صار هو وبعض نجباء الخلوة ينسخونها في أوراق صغيرة توزع على الناس بعد احاديث شيخ حسن بجامع أم درمان بين العصر والمغرب وبميدان البوسته كما سيجيء ذكره •

وقد تعلم صاحبنا من شيخه الذي كان يخصه ببعض افضاله ــ تعلم منه فن الحلاقة ، فقد كان شيخ حسن مع كونه صاحب خلوة يحمل معه شنطة بها أدوات حلاقة كاملة وكان صاحبنا يقوم بحلق رؤوس بعض الصبية الصغار مقابل تعريفة واحدة للرأس ويذكر اول يوم سمح له الشيخ بحلق رأس طفل وكيف أنه (سلك) من أول محاولة ولذلك عرف أن الحلاقة فن وذوق وأن حلاقة رأس الطفل تحتاج لهذا الفن والذوق أكثر من رأس الرجل •

كانت هنالك مسطبة مستديرة عالية في ميدان البوسته في أم درمان ويتوسطها عمود وقد اقيمت في الأيام الخوالي لموسيقى الحدود التي كانت تأتي لأم درمان لتشنف آذان سكانها في المناسبات وكان شيخ حسن هذا : صاحب الخلوة يحضر ومعه اثنين من حيرانه النجباء يقف على تلك المسطبة يتحدث مع جمع غير قليل من المواطنين يشرح لهم كل يوم حديثا من أحاديث الرسول (صلعم) أو آية من القرآن يبسط المعاني في طرافة وحلاوة وفي نهاية الحديث يأمر حيرانه بتوزيع الحديث أو الآية مكتوبة باليد في قصاصات صغيرة من الورق وعلى مسافة غير بعيدة منهم كان سكان أم درمان

يتجمعون كل مساء في ميدان البوسته موجهين انظارهم وآذانهم الى المكرفون الكبير المنصوب فوق مبنى التلغراف وفي السادسة والنصف مساء ينادي المكرفون (هنا أم درمان) ثم يستمع المواطنون الى الاخبار واغاني احمد المصطفى (بريطانيا دولة قوية) وحسن عطية (يا للا نزور الاذاعة) والكاشف وعائشة الفلاتية وسرور وفي الثامنة مساء تنتهي الاذاعة ويتفرق المواطنون ، أما شيخ حسن فكان يهاجمها على أنها لهو وعبث فكان كرام المواطنين يتركون الاذاعة ويستمعون له .

ومرت سنوات وخلوة شيخ حسن يؤمها عدد غير قليل من الصبية يتعلمون منه الكتابة والقراءة والفقه والتوحيد والحديث ، كما يتعلمون منه الآداب الدينية العامة فقد كان يلقن تلاميذه ما يقولون قبل دخولهم المرحاض وبعد خروجهم منه ، وما يقولون قبل النوم وبعد الاستيقاظ في الصباح ، وكيف يجلسون في المرحاض ولماذا يغسلون ايدهم قبل التطهر بالماء ، كل هذه الاشياء وغيرها تعلمها صاحبنا من شيخه الجليل ، وكان هو وبعض الصبية النجباء يتبعون شيخ حسن في حله وترحاله ويذهبون معه لصلاة العصر والمغرب بالجامع الكبير حتى أن بعضهم ربطت بينه وبين شيخ حسن الضرير مؤذن الجامع صداقة جعلت شيخ حسن الضرير يسمح لهم بالأذان من مئذنة الجامع الكبير وكانوا سعيدين بهذا الشرف بالرغم من رائحة الخفافيش وفضلاتهم القوية والتي تقابل الصاعد الى المئذنة من اول الدرج ، كانوا يتبعون شيخ حسن في كل مكان في الجامع وفي ميدان البوسطه وفي مولد الرسول بجامع الخليفة وكأنهم حواري سقراط يعلمهم الدين والحكمة.

قبض البوليس يوما على شيخ حسن وهو يخطب في المولد يهاجم الكفرة الفجرة ، فقد كانت ساحة المولد في ذلك الزمان مجالا للعب القمار من (لبس تكسب) (ودوري دوري يا دواره) و (الكشكوش) وغير

ذلك ، كما كانت تزحم الساحة بالنساء والرجال معا يتزاحمون ويتدافعون بالمناكب حتى أن بعض الأشقياء كانوا يربطون بين بعض النساء وبعض الرجال بدبابيس فتلتفت المرأة لتجد انها (مشبوكة) مع رجل غريب واذا (بالبرطوش) يهوي على رأسه وكانت تلك الظواهر اللادينية في عيد ديني تؤلم شيخ حسن فيهاجمها ويهاجم الحكومة التي تسمح بهـا .

وصل خبر اعتقال شيخ حسن الى زوجته في البيت وهي حديثة الوضوع ولها منه ثمانية أطفال فقامت منزعجة مما تسبب لها في حمى نفاس وعندما خرج من الحراسة في اليوم التالي وجدها قد فارقت الحياة ودفنها في أم درمان وهو صامت وأخذ ابناءه الثمانية في اليوم التالي وسافر الى السافل وبعـد عدة أسابيع سمع جيرانه بأنه مات ولا يعلمون السبب لأنهم كانوا صغار ، مات شيخ حسن لأنه كان يحب زوجته ويؤمن بالله ويكره الكفرة الفجـرة مات شهيدا وكان من أوائل الشهداء الذين ماتوا وهم يقولون كلمة الحـق من اجل الدين والوطن وأصبحت اليوم خلوة شيخ حسن مكانا لبيع الفحم رحم الله شيخ حسن رحمة واسعة .



الجولف

كان شارع العرضة ينتهي بمستشفى الارسالية من الشمال ومنازل أطباء الارسالية من اليمين ثم تقوم المنازل متفرقة تفصل بينها قطع من الارض غير معمرة وكانت المنازل من الجنوب مبنية من الطوب والاسمنت غرست بها أشجار كثيرة ويقف امامها أطفال نظيفي الثياب ، أما الجانب اليساري فكانت منازله معظمها من الطين المغطى بالزبال ويلعب أطفالها كرة الشراب أو الكده ـ وهي تشبه لعبة الهوكي عند الانجليز الا أن الكرة المستعملة فيها اما نواة الدوم أو كرة خشبية تمكن الصبية من الحصول عليها من بقايا ملاعب كرة الخيل أو (البولو) الواقعة غرب المدينة . وآخر منزل من جهة الجنوب كان منزل السيد علي نديم وبعده بقليل كانت تقوم حجرة مربعة هي عبارة عن مخزن الجولف .

ومن تلك المنطقة يمتد ميدان الجولف غربا وجنوبا ، وعلى مسافات متباعدة أقيمت حفر الجولف من الأرض مملسة ومنظفة ومغطاة بالرمل المشرب بشيء يشبه زيت النفط ومنعمة (بدرداقة) من الصلب الثقيل وفي وسطها حفرة صغيرة لا يزيد قطرها عن بوصتين وحول تلك المنطقة أقيمت كثبان أو (تروس) من التراب لتحفظ المنطقة من الامطار أو السيول .

وكان الانجليز الذين يحضرون من الخرطوم أو من اطباء مستشفى الارسالية يوقفون عرباتهم بالقرب من حجرة المخزن ـ التي كان الخفير

يحفظ فيها (الدرداقة) والبيارق الصغيرة التي ينثرها على جنيع الحفر قبل بداية اللعب ـ كان الانجليز يحضرون في أيام السبت والاثنين والاربعاء ، وكان صاحبنا يتسابق مع صبية الحي الذين يسكنون شمال شارع العرضة ـ يتسابق معهم في الحضور الى منطقة حجرة الجولف لحمل الشنط التي يحضرها الانجليز معهم والتي تحتوي على المضارب أو العصي التي يستعملها اللاعبون في ضرب كرات الجولف البيضاء الصغيرة الخشنة الملمس والتي كان الصبية يسمونها (كوركبس) بالمقارنة بالكرات اللينة التي يستعملها الصبية في اللعب والمصنوعة من المطاط ، وكان الصبي المحظوظ الذي يختاره الانجليز لحمل حمالة العصي يتابع الانجليزي من بداية اللعب وحتى نهاية الحفر التي تمتد الى حوالي ثمانية عشرة حفرة ، كان هذا الصبي يحصل على قرش ونصف في آخر اللعب وكان ذلك مبلغا كبيرا في تلك الأيام ولذلك كان الصبية يتقاتلون في الحصول عليه وقد يحضر بعضهم في الواحدة والنصف بعد الظهر لينال الاسبقية وينتظر حتى يحضر اللاعبون في الرابعة بعد الظهر .

وعندما خططت تلك المنطقة كمنازل المسكان بعد عدة سنوات استبعدها الناس ورفض معظمهم السكنة في الخلاء حتى ان الذين تشجعوا وبدأوا في تعميرها اطلقت عليهم تسمية (الرجال بانوا) كناية لشجاعتهم .

وكان صاحبنا كثيرا ما يحظى بحمل مضارب الجولف ويتابع الانجليز وهم يضربون الكرات الصغيرة عبر الفلاة ، يتابعهم وعقله الصغير في حيرة وتأمل أولا من نسائهم أنصاف الرجال ذوات العضلات وثانيا في أسباب بقاء هؤلاء في بلاده البعيدة الحارة ، وكان يراهم تحمر وجوههم وسيقانهم بعد اللعب والتعرض للشمس بالرغم من أن موسم لعبة الجولف في فصل الشتاء فقط . وقد يحدث أن يضرب أحد اللاعبين ضربة طائشة ترمي بالكرة في اتجاه آخر فيحاول الجميع البحث عنها ثم يتركونها وعندها تكون فرصة الصبية في اليوم التالي فيحضرون في الصباح الباكر ان كان ذلك أثناء عطلة

مدرسية أو بعد الدراسة في الأيام العادية ويجري البحث عن الكرة الضائعة وكثيرا ما يسعد الحظ احدهم بوجودها وعندها قد يثور العراك ان كان سعيد الحظ صغيرا ولم تسعفه ساقاه بالجري ، وقد حدث ان وجد صاحبنا مرة كرة ضائعة فتلفت فوجد من بين من معه في البحث صبية اكبر منه سنا وجسما فغافل الجميع وجلس بالقرب من مكان الكرة مدعيا انه (ينسير) فوضع الكرة أو لفها في (تكة) سرواله ثم صار يبحث مع الصبية بعض الوقت ثم ادعى التعب وكر راجعا وتركهم في بحثهم وهو سعيد وهكذا كان حاله دائما يستعين بذكائه في كل حالة تقصر فيها امكانياته الجسمانية عن مصارعة الصبيان الآخرين • وهو يذكر تلك الكرة عندما تقادم غلافها الأبيض الخشن وكيف جلس يكتشف ما بداخلها فاذا هي عبارة عن خيوط رقيقة من المطاط لفت ولفت بطريقة دائرية محكمة حاول قياسها فوجدها تمتد وتمتد الى لا نهاية •

وشيئا فشيئا انفض سامر الانجليز وقلت مجموعاتهم وكسدت لعبة الجولف وقل روادها ثم وزعت الاراضي كمناطق للسكن كما ذكرت سابقا واندرست ميادين الجولف وصارت كثبان التراب التي أقيمت حول الحفر الصغيرة تجمع (السفاية) حولها وتنبت فيها الاعشاب الخلوية ونسي الناس ما كان من أمر لعبة الجولف وظن بعضهم أنها لم تكن في السودان يوما من الأيام الا أن صاحبنا لا زال يذكر تلك الحجرة المكعبة وحولها تنبت الحشائش في الخريف وبعض الانجليز رجالا ونساء يسيرون طوالا وصاحبنا خلفهم يحمل مضارب الجولف متعددة الاشكال والاحجام وكان مع صغر سنه وحجمه وعقله يتأمل ويفكر خلال المشي الطويل الذي تفرضه لعبة الجولف، ومن يومها وهو يعتقد أن المشي علاج نفسي لكل المشاكل قبل أن يكون رياضة •

الغبـــاشي

(الغباشي) طائر صغير أغبر اللون جميل التكوين ، سريع الحركة ، طيرانه على قفزات يرفع ذيله ويخفضه في حركة دائمة تلقائية كما تفعل الذبابة عند تنظيف أجنحتها وأرجلها ، لا يعرف الصبية قط أين يبني اعشاشه وأين يشرب ، فقد كانوا يرونه في الفلاة القفر الواقعة غرب أم درمان يتنقل بـين أشجار السيال والكتر والطنطب لا يستقر على حال •

وموسم صيد الغباشي أثنـاء العطلات المدرسية ، يحضـر الصبيـة (قلوبياتهم) ويختارون (مالوفاتهم) والمالوفة هي الشجرة الصغيرة التـي يخصصها الصبي لنصب القلوبية أو الفخ الذي يوقع فيه الغباشي ولكل صبي شجرة خاصة يختارها ويحجزها عن بقية الصبية وينظف تحتها ثـم يضع حجرا صغيرا لكي يقع عليه الغباشي قبل ان ينقض على الجرادة المنصوبة فوق الفخ ، فقد عرف الصبية طباع الغباشي وحركاته فهو يهبط على الشجرة ثم ينزل منها الى الحجر الصغير وفي حركات سريعة يخفض رأسه ويرفعه فـي حركة مناوبة لذيله أي انه يرفع الذيل عند انخفاض الرأس وبالعكس ثم في حركة سريعة يحاول التقاط الجرادة التي غالبا ما تكون من نوع (القبورة) ذات الأجنحة الداخلية البرتقالية الزاهية اللون ولن يضع الصبي نوعا آخر من الجراد مثل (الكرار) أو (أم جركم) الا اذا عجز عن ايجاد (قبورة) •

وقبل أن تصل (القلوبية) الـى السودان كان الصبية يستعملـون الاشراك المصنوعة من السبيب الذي يلتقطونه من ذيول خيل عربات الكارو ثم يبنون الشرك من الطين الذي يغرسون فيه السبيب وينظمونه في عقـد صغيرة مفتوحة ثـم ينثرون حبات الذرة حـول الشرك الا أن وصـول (القلوبية) قضى على أشراك السبيب فهي سهلة ورخيصة يمكن شراءها من دكان (الطوخي) بتعريفة واحدة قبالـة الجامع الكبير •

وصيد الغباشي لا يمكن ان يكون في جماعات ، فبالرغم مـن أن صبية الحي يخرجون معا الـى الخلاء الواقع غـرب أم درمان الا أنهم يتفرقون في مسافات بعيدة كما أن عملية التشاؤم والتفاؤل متعارفة عند الصبية . خرج اثنان معا ولم يتمكنا من اصطياد أي غباشي قال احدهما للآخر , فقر تاني ما تمشي معاي) وقـد يسعد الحظ ـ وهذا نادرا ـ أحد الصبي فبدلا من أن يقع غباشي في فخه يسعده الحظ فيجد (كداد الدواك) وهذا طائر اكبر حجما من الغباشي ، أسود المنقار •

كان صاحبنا من هواة صيد الغباشي وكان يخرج في الصباح يحمل القلوبية حتى يصل الى منطقة مالوفته وفي الطريق يصطاد عددا من (القبور) وعندما يجد قبورة في طريقه يحاورها حتى يجلس قريبا منها جاعلا رأسها تجاه يسناه ثم يفتح يمناه ويمد ذراعه وفي حركة سريعة يحرك ذراعه واليد مفتوحة فوق القبورة فترتفع القبور عن الارض وفي نفس اللحظة يقبض يده فاذا القبورة بداخلهـا ، وأول ما يفعله عندمـا يحس بالقبورة داخـل [illegible] المقبوضة ان يضرب القبورة بالارض ضربة قوية تموت على أثرها القبورة ثم ينزع جناحيها الخارجين وأذرعها التي تستعملها للقفز ويمسك بها بين أصابعه واضعا ابهامه فوق رأسها وفي آخر جناحيها ويضغط بالابهام ضغطا خفيفا فترتفع الاجنحة البرتقالية فـي شكل جميل مغـري للغباشي وغيره مـن الطيـور •

كان صاحبنا (يكج) أي ينصب قلوبيته تحت مالوفته وبعد ان يطمئن الى كل شيء بما في ذلك منظر القبورة الجميل ينطلق في الفلاة بحثا عن الغباشي ، وقد يقوده البحث لمسافات بعيدة عن المالوفة حتى يجد الغباشي وعندها يزول كل التعب ويتجدد النشاط ويبدأ في هش الغباشي نحو اتجاه المالوفة وكلما انتقل الغباشي من شجرة الى شجرة او من حجر الى حجر تزداد ضربات قلب صاحبنا ويزداد نشاطه مرددا القول (ياغباشي.. اح ..) واضعا يده اليمنى على صدره كأنما يغري الغباشي بالطيران نحو فخه ، وتستمر هذه المطاردة أو كما يسميها الصبية (الدودره) حتى يقترب الغباشي من المالوفة فيواصل صاحبنا في صوت رخيم هادىء (يا غباشي .. اح .. للمالوفة .. اح .. دنقر شوفه .. اح .. في المالوفة .. اح) وهكذا كلما اقترب الغباشي من الفخ زادت ضربات القلب وعلت الانفاس وانخفضت وفقد صاحبنا الاحساس بوخز شوك الحسكنيت على قدميه وقد يقف الغباشي على الحجر أمام الفخ ويرفع رأسه ويخفضه عدة مرات دون ان ينقض على (القبورة) ثم يخطر بباله خاطر ـ بال الغباشي ـ فيترك المالوفة كلية وينتقل الى مكان آخر ، كل ذلك وصاحبنا يعامل الغباشي كشخص له عقل وحيل وذكاء ويحاول ان ينتصر على ذكاء الغباشي وخداعه بذكاء وخداع مماثل حتى يتمكن من اقناعه اخيرا بالهجوم على (القبورة) وفجأة تنطبق القلوبية على عنق الغباشي فيصيح الغباشي بأصوات مبحوحة متلاحقة كلها خوف وكلها هلع وعند ذلك يصيح صاحبنا فرحا مهللا وهو يجري نحو المالوفة (الشرك قبض .. الشرك قبض ..) وهكذا تتم السعادة وتعم الفرحة فيخرج عنق الغباشي من القلوبية وينزع ريشات من جناحيه حتى لا يطير ويحمله في جيبه وقد ينصب القلوبية مرة أخرى اذا كان هناك متسع من الوقت أو يأخذ الغباشي ويكر راجعا الى بيته ، وهو يحتفظ في بيته بقفص صغير من السلك والخشب يحفظ فيه ما يصطاده من عصافير ويطعمها الذرة والدخن والجراد

وقد يمتد احتفاظه بالغباشي لعدة شهور حتى تصيبه المنية فيموت •

وهناك من الصبية من يشوون الغباشي في الخلاء ويأكلونها ولكنه لم يمارس تلك الهواية لانه يكره الطريقة التي يقطع بها الصبية رأس الغباشي ويعتقد أن فيها قسوة ، فهو يهوى منظر الغباشي حيا أكثر مـن منظره ميتا ويهوى متعة المطاردة والصيد والظفر بما يريد اكثر من المتعة بأكل صيده •



أكل القطط

من أحسن هواياته وهو صغير تربية الحمام ، كان هو وأخوه الأصغر يضربان الطوب ويحضران الحجر ويبنيان برج الحمام وحدهما دون مساعدة أحد ثم يجمعان الصفائح من الجيران ويربيان الحمام ، كان لديه الحمام القطاوي الذي أعطته له زوجة خاله من الخرطوم بحري وكانت تسمى (الحلفايه) وكان لديه الحمام اليمني الصغير الجميل والحمام الرقاص ، يقضي الساعات داخل البرج وفي الصباح يطعمه بالعيش والحنظل والشطه ويغير له الماء وفي المساء يتأكد من أن جميع المنافذ قد اغلقت حتى لا يدخل القط اللعين ويأتي على صغار الحمام ولكن قد يحدث الفينة بعد الفينة ان ينسى (طاقة) أو شباكا دون اغلاقه فيدخل القط ويأتي على جوز أو جوزين وفي الصباح يعم الحزن كل البيت بسبب حزنه وبكائه . من أجل ذلك اشترى شركا لصيد القطط .

وفي أول يوم نصب الشرك وجاء قط أسود لعين ودخل الشرك فهوى الباب وبقي القط داخل الشرك حتى الصباح وفي الصباح طلب مشورة خادمهم اسماعيل الذي قام بادخال باب الشرك في جوال ذرة فارغ ثم فتح الباب فدخل القط اللعين في الجوال متوهما أنه الطريق الى الحرية ، وهنا حضرت احدى صديقات والدته ونصحت بأخذ القط الى ود الفكي حسين فسألها لماذا فقالت له لأنه يأكل القطط ، عندها أحس بالسعادة وجر القط بالجوال

طوال الطريق حتى وصل الى منزل ود الفكي حسين الذي لديه برجين كبيرين للحمام ، وعندما قدم الجوال لود الفكي حسين سر الرجل ايما سرور ، ومنذ ذلك اليوم ربطت هذه الحادثة بينه وبين ود الفكي حسين برباط قوي من الصداقة ، فقد ظهر أنهما يشتركان في حب الانتقام من القطط أكلة الحمام وان ود الفكي حسين يقوم نيابة عنه بعملية الانتقام بأكل القطط اللعينة وفي نظره كانت هذه أقصى درجات الانتقام ان تأكل عدوك •

ود الفكي حسين رجل غريب الاطوار يعيش وحده في منزله هذا ليس لديه غير برجين كبيرين للحمام وكانت صناعته في الحي تجليد واصلاح العناقريب وعمل الحبال وكان يبيع الحمام ولا يأكله بل يأكل القطط بعد أن يذبحها ويطبخها بنفسه وكان رجلا ورعا يصلي ويصوم ولكنه يحب أكل القطط ، لم يكن يدري ان كان ود الفكي حسين هذا قد تزوج من قبل أم لا ولكنه كان دائما يحس بأن ود الفكي حسين يعاني من حزن دفين لا يرويه لأحد يحدثه عن انواع الحمام ويحدثه ان في مصر انواع كبيرة جدا من الحمام الذي لا يطير بعيدا ويعلمه كيف يعرف الحمام العاقر والحمام الولود تعلم أشياء كثيرة من ود الفكي حسين الا أنه لم يتعلم منه قط كيف يأكل القطط فقد دعاه الى أكلها معه عدة مرات ولكنه كان يستمتع جدا بمنظر ود الفكي حسين وهو يأكل الاعداء من القطط الشرسة أكلة الحمام وكانت الأوقات الممتعة التي يقضيها وهو ينظر لود الفكي حسين وهو يأكل القطط تمتد أحيانا الى الأوقات التي يجلس فيها بالقرب من ود الفكي حسين وهو يحضر (السعف) ويجهزه لفتل الحبال فهو بعد ان يقوم بتقطيع السعف الى شرائح رقيقة يجمعه في مجموعات صغيرة مثل مكانس السعف او المقاشيش ويقوم بدقه بعود من الخشب على حجر عريض حتى يزيل معظم القشور عن الألياف ثم يبل تلك الألياف بالماء ويلفها بجوال قديم مبلول بالماء حتى تطرى ويسهل فتلها حبالا • ويبدأ ود الفكي حسين في فتل الحبال بيديه بأن يفرك

أجزاء الألياف في حركة دائرية ثم يوصل كمية اخرى بطرف الحبل الـذي لم يجدل ثم يجدلها هي الأخرى تاركا طرفها الاخير حتى يوصل بـه كمية أخرى من الألياف وهكذا •

وكان يلاحظ أن أطراف كفتي ود الفكي حسين قد تحجرت او كادت وصارت تشبه أكعاب الأقدام الحافية من كثرة المشي كما أن أصابع ود الفكي حسين صارت في وضع منثني حتى عندما لا يكون منهمكا في عملية الفتل ، وقـد تعلم منذ ذلـك الوقت المبكـر أن الجسم لـه مقدرة في التكييف والتكيف حسب ظروف العمل والبيئة •

وقد كان ود الفكي حسين يقوم بفتل الحبال خارج منزله من أول الزقاق الى آخره مستعينا بأوتاد من الحديد يدقها في الأرض وعودين من الخشب يربط واحدا ــ وهو الاصغر ــ في طرف الحبل من جانب واحد منه وفي شكل عمودي نحو الأرض كما يربط الآخر بشكل افقي بعد العود الأول ، وقد يستعين بأربعة عيدان لفتل حبلين في آن واحد ويبدأ في تحريك العود الأفقي بيده في شكل دائري خفيف فيدور العود الرأسي تباعا لافا الحبل معه في حركة دائرية تجدل الحبل تدريجيا في شكله النهائي ، وكثيرا ما عاون صاحبنا ود الفكي حسين في هذه العملية فقد تعلمها منه •

واستمرت علاقته بود الفكي حسين سنوات حتى باعدت بينهما دراسته ثـم كبر ود الفكي حسين ومات فحزن عنيه كثيرا وترحم عليه كثيرا •

وفكر يوما وهو صغير يتابع أكل ود الفكي حسين لاعدائه القطط ، فكر في الحرب الدائرة بين الانجليز والطليان في حدودنا الشرقية ، وخطر له خاطر ، هل يمكن أن يأكل الانجليز الطليان اذا ما انتصروا عليهم ــ فقد كان ما يسمعه من دعاية يوحي بكراهية متناهية من الانجليز للطليان ــ ، لـم يحدث أحدا بهذا الخاطر ولكنه فكر جديا في احتمال أكله هو لاعدائه ان

مكنه الله منهم ، ومرت بـه سنوات عرف ان أول آدمي أكل آخـر كان بسبب عدائه لـه وانتقاما منه ثـم استساغ طعم اللحم فظهرت عادة أكـل لحوم البشر لدى القبائل البدائية . فأدرك وقتها انـه كان في صغره يفكر بعقل البدائي وكان يعتقد ان اعداءه دائما هـم الكفار .



أم حقوقــة

أراد صنع أبواب ونوافذ لمنزله الجديد فتذكر صديقا لـه في الدراسة
في فترة الكتاب ، فرقت بينهم الأيام دخل هو المدرسة الوسطى والتحـق
صديقه (بورشة الحجر) كما كانت تسمى آنذاك وهي المدرسة الصناعية بأم
درمان بالقرب من صهريج المياه في حي بيت المال ، وتخرج صديقه نجـار
انتهى بـه المطاف باقامة ورشة للنجارة بالمنطقة الصناعية بأم درمان وتنقل
هو في التعليم من الوسطى الى الثانوي ، ولكن الصداقة التي تربط بينهم
ظلت كما كانت رغـم فترات التباعـد الطويلة التي كانت تفصـل بينهما
وعندما فكر في بناء منزله تذكر صديقه فذهب اليه طالبا منه ذلك العمل .

وعندما انتهى من الاتفاق على العمل مع صديقه دار بعربته في المنطقة
وفي طرفها وجـد بقايا مباني ذكرته بأيامه الخوالي ، أيام زمان كانوا سبعة
من الاصدقاء في الكتاب ويسكنون حيا واحدا وكان من بينهم اثنان أشقياء
لوالدهما معصرة للزيت في تلك المنطقة التي كانت بعيدة عن المدينة ، وفـي
يوم من الأيام دعاهم الصديقان الى تناول طعام الافطار في معصرتهما وكانت
تسمى منطقة (العصاصير) وفي صباح ذلك اليوم حضر الجميع ومعهم عدد
آخر من الاصدقاء من غير حيهم ومن نفس المدرسة ، دار بهم الصديقان حول
المعاصر ، جمال ضخمة تدور معصوبة العينين تقريبا حول عمود ضخم مـن
الخشب المفرغ وبداخله عمود آخر من الخشب ربط حوله حبل امتدت منه
عارضة خشبية طويلة أحكم ربطها على الجمل الذي يدور ويدور وصوت
حزين كالصرير ينبعث من احتكاك الخشب الذي يعصر حبات السمسم حتى
تجود بالدهن مـن داخلها .

مر بهم الصديقان على مراحل متعددة للسمسم داخل المعاصر ، هناك السمسم الذي بدأ يتكسر وهناك ما بدأ يخرج منه الزيت ، وهناك العجينة المبسوسة التي تسبق مرحلة الزيت وهي ما يسمى (بأم جقوقة) وأم جقوقة هذه هي سبب مجيئهم الى العصاصير فهي تؤكل في شكلها هذا ، اما بالسكر أو يضاف اليها التوابل من ملح وشطة وغيرها وتعجن بالكسرة أو تؤكل بالرغيف البلدي .

وتلك كانت أول مرة يرى فيها أم جقوقة فقد أكل السمسم المدروش أو المدقوق في (فندق التهوة) وعجنه بالكسرة وخاصة في الشتاء وعندما تكثر البنضورة فلم تكن هناك بنضورة في الصيف كما أن اسمها المتعارف اليوم طماطم ، لم يكن متداولا بل كان يستعمله أولاد المصريين أو المواليد المقيمين في السودان . وقد تساءل مع زملائه في ذلك عن مصدر الاسم (أم جقوقة) فلم يفلح أحد في تفسير الاسم ومصدره ، وكعادته في مثل هذه الأوقات عندما يريد أن يحل لغزا عجز الآخرون عن حله صار يسير خلف الصبية وهم مرور على العصاصير ويفكر وعند احدى العصاصير وقف يرقب الجمل وهو يدور ثم اقترب من العصارة نفسها ونظر في داخلها فسمع مع الصرير الحزين المرتفع من العصارة سمع صوتا آخر هادئا ولكنه واضح جدا سمع صوت السمسم المدروش أو المعصور داخل العصارة وهو يتحرك ويئن من عصر الاخشاب المتلاحقة وكان الصوت الذي يصعب كتابته بالحروف أقرب الى (جق جق جق) ولكنها جقجقة مختلطة أي ان بعض السمسم كان ينطق الجيم والبعض ينطق القاف البعض بين الجيم والقاف والبعض الاخير بين القاف والجيم ، وهو صغير كان خياله لا حدود له حتى أنه كان يبكي عندما يقرأ مغامرات (عسكري صفيح شجاع) وبالرغم من أنه كان مقتنعا من أنها قصة خيالية وان العسكري من الصفيح الا أن خياله الخصب كان يصوره له بروح واحساس ، ولم يكن يدري آنذاك ان هذا الخيال خيال

طفولة فقط أم خيال البشر عامة أطفال وكبار ، ولذا تصور السمسم بأحاسيس وآلام واحزان ثم تصور أصواته وهو يتألم من العصر ثم سمعها كما صورتها آنفا وهنا تمكن من اكتشاف الاسم وعرف أن هناك شخصا آخر سمع هذه الأصوات ثم صور اسمها في تلك المرحلة وسماها (أم جقوقة) ولم يقص ما توصل اليه لأصدقائه فقد عودوه الضحك على أفكاره الغريبة التي لا تؤخذ منهم مأخذ الجد في كثير من الاحيان فآثر الصمت .

بعد مرورهم على العصاير كانت (أم جقوقة) قد جهزت وجلس الأصدقاء على الارض حول صحاف كبيرة مملوءة بأم جقوقة وتناول كل منهم رغيف العيش البلدي وأكلوا حتى شبعوا ثم شربوا الماء من القربة الكبيرة المعلقة في الراكوبة ورائحة القطران وطعمه تفوح منها ، ثم شاهدوا عملية اخراج الزيت من العصارة ثم اخراج (الولد) وهو العمود الخشبي الصلب الذي يدور داخل العصارة وتحت (الولد) اخرج زيت الولد ، زيت أبيض نظيف جدا ذو رائحة زكية جدا ، هذا الزيت كان دواء لكل داء ملعقة واحدة منه تداوي الكحة الكتكوت كل صباح ومسحة منه تزيل الحمى .

بعد ذلك لعبت المجموعة كرة الشراب حتى انتصف النهار وتصبب العرق واتسخت الملابس وكر الجميع راجعين الى المدينة وفي الطريق اختلف اثنان دون سبب ودار عراك انتهى باصابة احدهما في جبهته ويرجع الجميع الى منازلهم سعداء بالرحلة الممتعة ، وفي الطريق تذكر أسراب الحمام التي تهبط وترتفع وتلتقط بقايا السمسم في سرعة ومهارة وعندها اكتشف المكان الذي يحضر له حمامه الكثير وشكر صديقيه في نفسه وكذلك كل أصحاب العصاصير وشعر بأن هناك من الاحسان الخفي مالا يعرفه المحسن ولا يعرفه من يتلقى الاحسان الا بمحض المصادفة عندما يكون مدعوا الى تناول الافطار في (العصاصير) بأم جقوقة .

بائع الطوبي وملاسي

دكان صغير خلف الجامع الكبير في أم درمان وأمام دلالة ملاسي ، هذا الدكان الصغير هو دكان (الطوبي) برفع الطاء وكسر الباء ، شيء لذيذ يشبه الايسكريم في برودته ولونه ويشبه الشمعة الكبيرة في شكله ولونه وينتهي بعصاة رفيعة يبرز طرفها من أسفل كمقبض لهذه الحلوى الباردة اللذيذة وتبقى الشمعة العليا ملفوفة بورقة يزيلها الشخص ثم يبدأ في لعق الطوبي في متعه ورفاهية .

شخصيتان عظيمتان اختفتا من أم درمان ، فقد كان ملاسي رجلا أبيض اللون ضخم الجسم له (دلالة) بها كل شيء ، هي في واقعها مخزن كبير خلف الجامع الكبير تتكدس فيه الاشياء من كل نوع من حديد وخشب وقصدير ، أبواب وشبابيك وأقفال وبقايا سيارات وبقايا منازل وبقايا دراجات كل ما يخطر على بال بشر ، ويمكنني ان اقول مالا يخطر على بال بشر وملاسي يجلس على (عنقريب) منخفض يرتدي قميصا وسروالا أبيض بالقرب منه كيس به كمية من النقود يشتري أي شيء يقدم له ، ويبيع أي شيء داخل هذه الوكالة الكبيرة ، وما عليك الا ان تبحث عما تريد ثم تسأل عن السعر فيعطيك رقما دون تردد تنقده المال وتذهب .

ولم يكن ملاسي رجل مال أو كان يحب المال فقد اشتهر مع دلالته التي لا يفهمها سواه ، اشتهر باحسانه وخاصة أيام الجمع فقد كان يحضر

الأكل الكثير أيـام الجمع وكان الشحاذون يذهبون اليه طوابير من (فريق العمايا) وهي منطقة بالقرب من العباسية ليتناولوا عنده طعام الغداء بما لـذ وطـاب من الفتة واللحم والرز وكان الجميع يحسون بأن ملاسي يجد متعة ولـذة في رؤيـة الفقراء وهم يلتهمون الطعام اللذيذ بسعادة وسرور •

أما بائع الطوبي فقد كان يونانيا أو ايطاليا عجوزا ، يضع ستارة فـي جانب من الدكان الصغير الذي وضعت فيه ستة مناضد حديديه ذات أقراص من الرخام اصطفت حولها الكراسي ويعمل معه صبي واحد في الدكان لا يسمح له بالدخول خلف الستارة قط ، وعند حضور الزبون وجلوسه عـلى كرسي يحضر الصبي لسؤال الزبون فيرد الزبون (أريد طوبي) فينـادي الصبي (واحد طوبي) وبعد قليل يقـدم الصبي الطوبي كما وصفته وهو لذيذ لا زال طعمه الغريب يصل الى فـم صاحبنا كلما مـر خلف الجامـع الكبير فيسيل لعابه ، مات حاج ملاسي وانتهت الوكالة وقيل انه ترك لورثته آلافا مؤلفة من المـال ومات الخواجه صانع الطوبي وتحول الدكان الـى شيء آخر ولكنه مات بسره فلم تعرف أم درمان الطوبي بعده قط ••

كان صاحبنا يشتري الطوبي أيام الجمع ثم يعود الى منزله مارا بمقهى ود الاغى وتنطق (اللغى) ثم يقف أمام نادي الهلال الذي كان في المربـع الثاني قبالة ميدان البوسته باب كبير من الزنك هـو المدخل لفناء النادي وحجرتان لهما أبواب عليها عوارض من السيخ كان الصبية يقفون متزاحمين عند هذين البابين يتفرجون على رواد النادي من الداخل هذا طلعت ، وهذا حسن كديس ، وذاك يوسف رجب وهذا النخيلي وذاك حسن عوض الله وهاشم ضيف الله وكانوا يجلسون على كراسي وكثيرا ما تصدح موسيقى القرب التي كان احد عازفيها طلعت فريد ، كان معبود الجماهير ، لفنه في لعبة الكرة ، ولابداعه الرياضي في فناء النادي حيث كانت تعقـد تمارين

(الجمبـاز الانجليزي) على الحصان الخشبي والعقلة والمتوازيين ، وكان يعزف على القربة ويضحك الصبية بنكاته الطريفة .. وكان الصبية يتزاحمون حول الاسياخ ويتهامسون فيما بينهم عن نجوم الكرة في ذلك الزمان ويرددون الاشاعات عنهم ، فهذا هاشم ضيف الله الذي خنق الحكم في دار الرياضة لأن الحكم حضر الى المباراة وهو سكران ؛ وذاك يوسف عبد العزيز الذي اطلق الكرة من خط الباكات حتى أوصلها الى مرمى المريخ في الجانب الآخر وذاك عكاشة الذي سجل الاصابة من ضربة (الكورنر) وهكذا يتهامس الصبية ويتقالطون .

كانت أم درمان كلها تنقسم الى ثلاثة مجموعات ، هلالاب وهم الاكثرية ومريخاب وهم سكان حي المسالمة وحي العرب ، ومجموعة ثالثة هي المورداب كان من أكبر مشجعي الهلال عثمان الزيبـق صاحب المقهى الشهير وأكبر مشجعي المريخ منافسه ود اللغى صاحب المقهى الآخر الشهير ، كانت الكرة رياضة محببة لكل سكان أم درمان ولم تكن هنالك أحزاب سياسية بين كل صراع كان يدور في الكرة وكان الرياضيون هواة لا يتقاضون نقودا أو هدايا بل يصرفون على منتدياتهم من مرتباتهم القليلة ، كانت الرياضة فـن وروح وأخلاق ولم يظهر بعد المثل الجديد (لا كفر ولا وتر) ولا توتو كوره .

امرأة في الطريق

ركوب الدراجات يعتبر من أمتع أدوات الترفيه عند الصبية ، ولم يكن في مقدور الغالبية العظمى من الآباء في أم درمان في ذلك الزمان البعيد ، لم يكن في مقدورهم شراء دراجات لأبنائهم كما أن تعلم ركوب الدراجات كان من أوائل المهام التي يقوم بها الصبي عندما يحس بأنه كبر وأنه قد استقل بنفسه عن رقابة أمه في البيت وخارجه ، وقد كان صاحبنا يراقب الصبية في حيه والذين يكبرونه بسنوات يتحدثون عن العجلات ثم يحضرون الى الحي بالعجلات المؤجرة يركبونها بعضهم في طور التعلم يدفعه أصحابه بعد ان يركب الدراجة وهي واقفة وأرجله على الأرض وبعضهم تعلم ركوبها وحده ولقصره أو لطول الدراجة يضع قدمه على (صرة) البدال بدلا عن الوضع الطبيعي للقدم حتى يتمكن من ركوب العجلة وبعضهم يركبها من تحت (الماسورة) ان كانت طويلة أو من فوق (الماسورة) ولكنه يجلس على (الماسورة) بدلا من السرج ليتمكن من وضع أرجله على البدال ، وهناك من يركبها نصف بدال وهذا معناه أنه لا يدير بدال الدراجة دائرة كاملة بل نصف أو ربع دائرة ثم يعيد قدميه الى مكانهما في وضع وسط ، تعلم كل هذا الفن نظريا ثم بدأ يذهب مع الصبية أقرانه ليؤجر العجلات القصيرة ولفترات قصيرة يشترك اثنان في العجلة حتى يتمكن أحدهما من (لز) الآخر أو دفعه ، وقد أصاب ركبته وكوعه بجروح عدة مرات من جراء

وقوعه بالدراجة ودخل بدراجته في مصرف ماء الخريف ذات مرة وكان المصرف به ماء آسن يعلوه الطحلب فاتسخت ملابسه وتحمل (علقة) ساخنة من والدته .

وذات يوم وهو في هذا الطور من تعلم ركوب الدراجة نقده ضيف عند أبيه قرشا ففكر في ايجار دراجة ، أخذ القرش وتوجه نحو السوق وخلف قهوة الزيبق في أم درمان كان يربض دكان أشهر (عجلاتي) في أم درمان دكان عوض كوج وهناك وجد أن جميع الدراجات الصغيرة مؤجرة فما كان منه الا أن ينتظر حتى تعاد الدراجات وطال انتظاره حتى أصابه الملل ثم قدم الى المكان طفل يقاربه في السن يجر دراجة صغيرة ويتصبب العرق من وجهه ورقبته وصدره ويكاد يبكي من الحزن والخوف ، وعندما وقف أمام الدكان خرج له صاحب الدكان والشرر يتطاير من عينه فصاح الصغير (والله نفست براها) وعندما مد صاحب الدكان يده وتناول الجنزير المعلق أمام الدكان وتقدم نحو الطفل ما كان من الطفل الا أن رمى العجلة وانطلق جاريا ، وقد كان صاحب الدكان يخيف الصبيان بهذا الجنزير حتى لا يؤخروا العجلات عن الزمن المحدد ولكنه لا يضربهم قط ، وقد كانت نصف الساعة بتعريفة والساعة بقرش .

انتظر حتى تمت عملية الرقع والنفخ ثم نقد عوض كوج القرش وقاد العجلة تتبعه التحذيرات عن التأخير ، لم يحاول ركوب الدراجة أمام الدكان خوفا من أن يكشف عوض كوج أنه لا يتقن الركوب بل قادها حتى منعطف الطريق وهناك ركب (الدراجة) وهي واقفة وقدماه على الارض ثم تلفت حتى رأى رجلا توسم فيه الخير فقال له (لزني يا عمي) وفعلا لم يخيب الرجل ظنه فقام بلزه وعندها سارت به العجلة في الطريق .

وتحاشيا للمارة وخوفا من العربات دخل بدراجته في زقاق ضيق خلف البوسته وعندما رفع رأسه ليرى الطريق شاهد امرأة عجوزا في أول

الزقاق الطويل ، لعن حظه العاثر الذي وضع هذه المرأة في طريقه وعندما أعاد النظر اليها وجدها تملأ الطريق من يمينه ويساره بالرغم من أنها ضعيفة جدا وطويلة جدا وتحمل مقطفا على رأسها ، فصار يصيح بأعلى صوته (يا حبوبة زحي •• يا حبوبة زحي) ولكن المرأة المسكينة لا تدري كيف تزح وهي تسير في طرف الشارع وكأنما تصلبت به الدراجة وكأنه واقع تحت تأثير منوم مغنطيسي ، الدراجة سائرة بأقصى سرعة والمرأة تملأ الطريق من أوله الى آخره وهو يصيح الى أن أدخل العجلة بين ساقي المرأة فاشتبكت قدماها وسقطت على الأرض وطار المقطف بعيدا ، فقال لها وهو على الأرض (ما قلت ليك ••) فلم تفعل المرأة أكثر من أن تقبض على العجلة بيد من حديد وكأنها فتاة العشرين لا عجوز في الثمانين وقالت له : (خلي امك تجي تفكك مني) فصار يبكي ويرجو ويستعطف والعجوز كأن قلبها قد من صخر حتى جاء رجل فاضل ورأى ذلك المنظر في هذا الطريق المهجور فاعطى العجوز خمسة قروش ورجاها اطلاق سراحه ففعلت ثم قام وهو ينفض التراب من ملابسه وكانت الساعة قد مضت أو كادت فتذكر جنزير عوض كوج وكر راجعا يجر الدراجة فقد فقد الرغبة في الركوب وعندما وصل الدكان كان الزمن قد بقيت منه عشر دقائق فاستغرب صاحب الدكان كيف يعود بالدراجة بهذه السرعة فسأله (حصل ليك حاجة) فرد بالنفي وسلم العجلة وعاد يجر قدميه وفي حلقه غصة • تذكر ما قاله له والده بأن كل شيء مقدر وان الله قد خطط الكون بحكمة ، ولكنه ظل يتساءل (أين الحكمة في حرمانه من ركوب العجلة في هذا اليوم) ولكنه أخيرا فطن الى أنه ربما كانت هذه المرأة عربة مسرعة فكيف كانت ستكون النتيجة وعندها ارتاح بعض الشيء وحاول تصديق أبيه بأن هناك حكمة لكل شيء •

غارة جوية

أوى الى فراشه كعادته كل ليلة في العاشرة مساء وأصلح وضع مصباح النور القائم بجانب السرير وفتح كتابه الذي بـدأه في الليلة الماضية ، كان الكتاب احد الكتب التي تلخصها مجلة المختار أو ريدرز دايجست الانجليزية عن احداث الحرب العالمية الثانية وقد حـوى الكتاب مئات من القصص الواقعي عن رجال ونساء كانوا وراء أحداث معينة أثناء تلك الحرب اختطاف موسيليني ، غرق الباخرة الملكة اليصابات . أعمال أطواف الصحراء بعيـدة المـدى ، أعظم جاسوس في الحرب ، ثم أغمض عينيه أثناء القراءة للحظة وسرح بعقله بعيدا الى تلك الأيام وتذكر حادثة واحدة غطت على كل الاحداث في ذهنه .. كان ذلك في عطلة صيف سنة ١٩٤٠ كانت الساعة حوالي التاسعة صباحا وهو جالس تحت ظل حائط بالقرب من منزلهم يفترش امامه جوالا فارغا وعليه يضع أكواما من الدوم ، كل دومتين معا وكعادته في العطلات يبيع لأبناء الحي أي شيء الحلوى من طبلينه الصغيرة والتي يحاول بعض الصبية الصغار سرقة الحلوى منها بأصابعهم الرقيقة من خلال السلك المشدود على غطائها ، أو التبش والعجور الذي يأكله الصبية بالشطة والليمون حتى تسيل انوفهم وتزداد (وحوحتهم) ، كان في ذلك الصباح يجلس على الارض بالقرب من الدوم ينتظر الزبائن من الصبية وبقربه حجران احدهما كبـير والآخر صغير لمساعدة الصبية في (دق) الدوم لتسهيل قضمه وهو في جلسته تلك سمع أزيز طائرة في الجو وكان ذلك نادرا في تلك الأيام ، فوقف يتطلع

الى السماء حتى رآها صغيرة بيضاء عالية جـداً وقد انعكست عليها شمس الصباح المتوهجـة وتابعها ببصره وهي تتجـه جنوبا في بطء وعـاد الى مجلسه على الظل وفجأة سمع صوت انفجارات هائلة ، أربعة انفجـارات متتالية ، أصابه رعب شديد فجرى الى منزل الجيران الذي كان يجلس على ظله وعند الباب وجـد فتيات ذلك المنزل يصرخن ويجرين في فناء المنزل وقف الحياء بينهن وبين الخروج للشارع وعندها احس برجولته الصغيرة فتمالك أعصابه وعاد مسرعا الى مكان الدوم وفي سرعة وضع كل الدوم داخل الجوال وحمله وجرى نحو منزله كان الأفق الجنوبي قد علته سحب كثيفة سوداء من الدخان وبدأت الرياح تحمل تلك السحب من الجنوب الى الشمال وعندما وصل باب منزلهم كانت السحب قد وصلته بغبارها وسوادها فتذكر ما سمعه عن الغازات السامة وعندها كتم أنفاسه ودخل المنزل مسرعا دون أن يتنفس فوجد أهله في هرج ومرج ولكنه أحس بأنهم يتنفسون فعاود التنفس وبعد قليل تلاشى الخوف والهلع فخرج الى الطريق بالرغم من صياح والدته وتحذيرها فوجد جماعة من صبية الحي قد تجمعت في ناصية الشارع ووجدهم يتسابقون في رواية تجربتهم في اثارة وحماس ثم قـرر الجميع التوجه جنوبا الى حي العباسية حيث شاهـدوا سحب الدخان فتحرك الجميع الـى هناك فوجدوا (المتطوعين) قد خفوا الى أمكنة الانفجارات ، المتطوعون هـم جماعة الدفاع المدني بالمفهوم الحديث وكانت التعليمات الخاصة بالمتطوعين أن يتجمعوا في منازل معينة رسم على حوائطها الصليب الاحمر عـلى دائرة بيضاء دليلا على أنها أماكن اسعاف وقد درج بعض الصبية وبعض المتحمسين لدول المحور تحويل ذلك الصليب الى صليب معكوف رمز المانيا النازية برسم خطوط أفقية عند اطراف الصليب الأربعة ولم يكن هناك هـلال أحمر في ذلـك الوقت .

وعند وصول صاحبنا مع الصبية الآخرين الى مكان الانفجارات عرفوا

أن القنابل كانت غارة جوية ايطالية وان الطائرة التي شاهدها كانت طائرة ايطالية وان الاصابات كانت عبارة عن مقتل امرأة في فراش الوضوع وبائعة لبن مشهورة في ذلك الحي تدعى (كلتوم ست اللبن) أصيبت هي وحمارها الشهير أيضا وصبي صغير .

كما علموا أن قنبلة سقطت على مدرسة الأحفاد في مكانها القديم على شارع الترام ولم تنفجر واخرى بالقرب من منزل مفتش المركز خلف جامع الخليفة ولم تنفجر أيضا ، ودخل الى منزل المرأة التي قتلت على فراش الوضوع فراعه ما رأى . وعندها كـره الحرب وكره المعتدين ..



شيخ أبو سبيِّب

شيخ ابو سبيب او (أبسبيب) كما تنطق عادة رجل صالح ورع تقي ، بهي الطلعة ، لــه وجه صبوح طيب يبعث على الطمأنينة والحب ، كان يــراه دائما في طرقات الحي أو في منزله عندما تأخذه والدته للشيخ فكان يروعه نظافة هندامه ورقته وما يشع منه من ورع وصلاح ، وللشيخ حمار أبيض جميل قد يكون (دنقلاوي) وقد لا يكون ، ولكنه حمار سريع الخطو نشط الحركة (بارد) الظهر ، عليه سرج جميل وفوقه فروة مصنوعة من فراء (المرعز) ناعمة طويلة تتدلى من جانبي السرج حتى تغطي بطن الحمار .

وقد كان شيخ أبسبيب يتنقل بحماره هذا من مكان الى مكان ، يرتاد به ولائم الزواج وبيوت البكاء في الحي وخارجه ، فاذا كان في الحي بكاء ، حضر الشيخ بحماره هذا الى بيت البكاء وكان صاحبنا ينتظر قدوم الشيخ بفارغ الصبر فهو يعرفه من بعيد بحماره العالي وجبته وفرجيته وشال ملفحته المزركش الذي يلفه فوق كتفيه ورقبته ، وعندما ينزل الشيخ من حماره ويقول كعادة الشيوخ في ذلك الزمان (امسك الحمار يا ولد) يجري صاحبنا قبل بقية الصبية ويمسك بالحمار ويربطه في واحدة من الحلقات الحديدية المتينة على حائط بيت البكاء فقد جرت العادة في ذلك الزمان البعيد أن يثبت الناس حلقات حديدية على جدرانهم لها أوتاد من الحديد توضع بين طوف وطوف أثناء بناء البيت وتبقى هناك رمزا لكرم الشخص وترحيبه بأي عدد مــن الضيوف الذين يركبون الحمير .

وقد اعتاد الصبية في مناسبات المآتم أن يغتنموا فرصة وجود أصحاب الحمير داخل بيوت البكاء فيركبونها كنوع من التسلية ، الأمر الذي يغضب أصحاب الحمير ، وقد يكون الحمار صعبا فينطلق بالصبي دون أن يتمكن الصبي من السيطرة عليه وفي هذا يسمى (عاثرا) فيرمي الصبي ثم يتخلص من السرج أثناء جريه فتتسخ الفروة (المرعز) وقد تنكسر يد الصبي في كثير من الأحيان •

أما صاحبنا فانه ، بالرغم من (شقاوته) ، لا يحاول ركوب حمار الشيخ قط اجلالا له واحتراما وتقديرا كما أن للحمار نفسه هيبة لديه فيظل يحرس الحمار حتى خروج الشيخ من بيت البكاء وعندها يقوم بفك رباط الحمار وقيادته حتى (الدكة) العالية التي تقام بالقرب من باب المنزل والتي يستعملها أصحاب الحمير لتساعدهم على الركوب اما لطول الحمار أو لكبر الشيخ أو لوقاره الذي يمنعه من القفز على ظهر الحمار كما يفعل السوقة أو الشباب • وقد تكون الدكة مبنية من الطوب الاحمر ومبلطة بالاسمنت كما هو الحال في بيوت علية القوم الذين يسكنون بيوتا من الطوب الأحمر وقد تكون من الطين (ومزبلة) كحائط البيت الذي تقام بقربه ، وقد تكون برميلا صغيرا يثبت على الأرض بشيء من الطين أو الطوب مع وضع جانبه المفتوح الى أسفل بعد ملئه بالتراب أو الطين •

كان شيخ أبو سبيب يسكن في منزل بحي البوستة او حي الشيخ دفع الله وكان قبالة منزله دكان به شاب ظريف يدعى (تنقلي) وهو يبيع الحلوى للصبية والسكر والشاي والجاز والفحم وغيرها من الاشياء التي تباع عادة بدكاكين الحارات وبالرغم من صغر سن (تنقلي) هذا ، وهذا الاسم ليس اسما بل لقب تعلق به منذ الصغر حتى طغى على اسمه الحقيقي ، بالرغم من صغر سنه فقد كان نشطا ظريفا دائم الابتسام ودائم الحركة يحبب الناس فيه •

وقد كان صاحبنا يحضر الى دكان تنقلي هــذا عندما ترسله والدته لشراء بعض الأشياء ، وقد ترسله لشراء سكر وشاي ، السكر بأربعة مليمات والشاي بمليم واحــد • وبالرغم من أن هناك دكاكين أخرى أقرب الى منزل صاحبنا الا أنه كان يؤثر الحضور الى دكان تنقلي أولا وأساسا لأن دكــان تنقلي يقوم بالقرب من منزل شيخ أبسبيب وقد تسعد صاحبنا الظروف فيلقى الشيخ خارجا أو داخلا ، وثانيا لظرف (تنقلي) نفسه ومجاملته في البيع ، الأمر الذي يجعل صاحبنا يتصرف في التعريفة فيشتري سكرا بثلاثة مليمات وشايا بمليم واحد ثم حلوى (جعبة سكينة) بمليم واحد وهي عبارة عــن قطعتين من الحلوى المستديرة بحجم الليمونة الصغيرة متعددة الألوان خشنة الملمس كأن بها ذرات مــن السكر الخشن يفضلها الصبية على كثير مــن الأنواع الأخــرى •

كانت تنتابه الحمى في الخريف شأنه شأن كثير من الصبية في ذلــك الزمان وكانت تسمى (الوردة) والمصاب بها يدعى (موروود) وقد تمسحه والدته بالزيت المخلوط بالمــاء والملح وتبخره بالقرض وبخــور التيمان أو الكناسة التي يجب أن تحــوي الشب وعرق عللي وحبة العروسة واللبــان الذكر ، كل هذه الأشياء مجتمعة كانت للحماية من العين فكانت والدته تغطيه بالفروة بعد أن تضع هذه الأشياء كلها على المبخر الذي يتقد بــه الجمر ومع كل هــذا تضع القرض ثــم تقول : (يا عين يا عنية يا كافــرة يا نصرانية ، اخرجي) ثم تقول (عين الحسود فيها عود ، عين الوالد شرا متالد ، عــين الفتى (الفتاة) فيها الوطى ، عين العاني شرا مداني) وتعدد أنواعا من الناس وتدعو على عينهم حتى تخرج كل العيون أو أي منها اذا ما أصابته ، ولكن بالرغم من كل هذا قد تستتر الحمى وعندها كانت والدتــه تأخذه للشيخ أبسبيب ليرقى عليه لمــا عرف فيه من تقوى وصلاح •

وبالرغم من أن والدته كانت تحذره من اللعب في ماء البرك التي كانت تتجمع غرب حيهم والذي كان آخر أم درمان من جهة الغرب ، وتحذره من أكل عنكوليب أول الخريف على اعتبار أن هذه بعض الاشياء التي تسبب الحمى فانه كان كثير اللعب في ماء المطر وكانت هناك بركة كبيرة غرب حيهم يسمونها (حدود) بتشديد الدال الاولى يستحم فيها الصبية وكأنها حمام سباحة في أيامنا هذه ، بالرغم من مائها المتسخ بالطين والفضلات التي توضع فيها في فترة الجفاف ، فإذا ما أصابته الحمى من جراء اللعب في ماء الامطار أو أكل العنكوليب فان والدته تنسى كل تحذيراتها السابقة وتعزي الحمى الى العين والسحر •

كانت تأخذه والدته لشيخ أبسبيب وهو يرتجف من الحمى في بعض الاحيان فيقابلهم الشيخ هاشا باشا ، ويجلسه بالقرب منه على عنقريبه ويتحدث اليه حديثا هادئا رقيقا ، ثم تحكي والدته للشيخ ما ألم به من مرض فيطمئنها بحديثه الرقيق ثم يحضر فرعا من عشب (التمام) الناسف والذي تستعمله النسوة كوقود رخيص (لعواسة) الكسرة على صاج الحديد الذي استحدث قريبا في ذلك الزمان البعيد فقد كانت الكسرة فيما قبل ذلك الوقت تعاس على (الدوكة) المصنوعة من الفخار وكانت توقد بالحطب ، كان الشيخ يحضر غصنا — ان جاز أن نسميه بالغصن — من التمام ثم يقيسه بكفه باسطا اياها على الغصن من الخنصر حتى الابهام ، ثم يجلسه الشيخ أمامه على العنقريب ويبدأ في الرقية التي يرقيه بها وهو يضربه ضربا خفيفا رقيقا بهذا الغصن وهو يهمهم همهمات خافتة لا يدركها صاحبنا ولكنه يصاب برهبة واحساس بالطمأنينة لا يعادله احساس ، ويبقى ساكنا يتنفس في هدوء حتى ينتهي الشيخ من رقيته وعندها يعيد الشيخ قياس الغصن كما فعل من قبل واذا بالغصن يزداد عن مقاسه الاول بعرض عدة أصابع فيكسر الشيخ هذا القدر الزائد ويعطيه لوالدته التي تأخذه الى البيت

وتضع قطعة الغصن الصغيرة على الجمر مع البخور وتبخره بها وعندها تزول الوعكة من صاحبنا ولم يحدث أن عاودته الحمى بعد مقابلة الشيخ قط •

مرت الأيام وكبر صاحبنا حتى صار رجلا وكبر شيخ أبسبيب وتقدمت به السن الا أن مرور الأيام وتنقل صاحبنا في مراحل الدراسة المختلفة ونيله من أسباب المعرفة والعلم ، كل ذلك لم يغير شيئا في نظرته لشيخ أبسبيب ، فقد ظـل دائما بوجهه الصبوح المبتسم وطلعته البهية وحماره الأبيض الطويل وهندامه النظيف ، كان الشيخ دائما رمزا للصلاح والطيبة والورع ولـم يسائل نفسه قط عن سر زيادة غصن التمام ولـم يسأل نفسه قط عما كـان يقول الشيخ وهو يضربه ضربا خفيفا بغصن التمام •

وباعدت الأيام بينه وبين الشيخ والحي بأجمعه فقد تنقل مع العمل من مكان الى مكان وظلت صورة الشيخ عالقة بذهنه دواما الى أن سمع يوما وهو بعيد عن السودان بوفاة شيخ أبسبيب فأصابه غم وحزن عظيمان وترحم عليه كثيرا ولكن ذكرى شيخ أبسبيب ظلت عالقة بذهنه ، يذكره كلما ألمت بـه مصيبة او داهمه كرب وكلما تذكر شيخ أبسبيب زال الكرب وانقشعت المصيبة رحمه الله رحمة واسعة •



الانجليز لايموتوا ولايفوتوا

كانت مساكنهم تعتبر نهاية لمدينة أم درمان من جهة الغرب ، حي جديد مخطط على طريقة حديثة قام بتقسيم أراضيه مفتش المركز الانجليزي مستر برامبل ، فسمي الحي بحي برامبل ، وبرامبل هذا كان يعتبر مدينة أم درمان ملكا خالصا لــه يتصرف فيه كيف يشاء ، يحب المدينة وأهلها ، وبالرغم من أن هدفه الأساسي كان خدمة الامبراطورية ، الا أن مدينة أم درمان قــد تطورت كثيرا في عهده ، وسكان أم درمان لا ينسون أبدا مروره على المدينة صباح الأربعاء من كل أسبوع ، تتبعه مسيرة كبيرة من الشيوخ والموظفين والاداريين ، كان معه وكيل المفتش ، والمأمور الوطني والعمدة مقبول السيد العوض ، وشيوخ الأرباع ، ثم شيوخ الحارات ومفتش الصحة ومهندس التنظيم ، فلم تكن هناك بلدية بعد ، ولم يعرف الحكم المحلي بأي صورة من الصور ، ومفتش التعليم وغيرهم من كبار موظفي مركز أم درمان ، كان المفتش يمتطي حصانه الجميل وكذلك وكيل المفتش ، أو المأمور ثم الشيخ مقبول السيد العوض ، عمدة أم درمان على حماره العالي الأبيض وقفطانه وفرجيته الجميلة ووجهه المشلخ الصبوح وكذلك يسر معهم قريب العمدة وشيخ السوق في نفس الوقت شيخ الامين .

كان المفتش يتأكد من نظافة المدينة والا تعرض مفتش الصحة للسؤال ويتأكد من جمع العوائد ويتأكد من حفر الخيران قبل الخريف والا تعرض

موظف التنظيم للسؤال وهكذا •• وعند دخول المفتش على الربع يتقدم شيخ الربع ويسير بالقرب من المفتش ومعه شيخ الحارة ، ثم يتناوب شيوخ الحارات الأمر حتى ينتهي المرور على الربع فيتغير شيخ الربع بشيخ الربع الآخر ويتأخر الباقون ليسيروا خلف الموكب وهكذا ، وفي هذا المرور كانت تقدم العرائض والشكاوى ويبت فيها ومن طرائف هذا المرور أنه يقال ان المفتش الانجليزي مر علـى منزل ودنفاش ـ وهو من ظرفاء أم درمان ـ ود تفاش ينام على عنقريب فوق سقف منزله هروبا من الحر فحاول ايقاظه ، وصار يرميه بالحصى والحجارة حتى استيقظ فقال له المفتش بعربية ملكونة : « يا زول يا موسى أنت مجنون ، تنوم هنا كيف ؟ » فرد عليه ود نفاش ببديهته الحاضرة : « مجنون أنا ولا مجنون البيطقع بالحجار » • وطبعا برامبل فهم النكتة لانه متضلع في اللغة العربية •• فضحك وترك ود نفاش •

وكان شيخ حي صاحبنا يدعى عبد الله ، وللشيخ عبد الله هذا حصان وحمار وكان يركب الحمار أثناء مرور المفتش ولكنه يركب الحصان في بقية الأيام ، وكان مصدر-اعتزاز الشيخ عبد الله أن يكون شيخا على حي برامبل نفسه ، وكان دائم التجوال في شوارع الحي وأزقته يمنع الناس من وضع الأوسخة في الطريق العام ويجبرهم على أخذها للبرميل ، كما يمنع دلق الماء في الطريق ، ومن حقه فتح البلاغات على كل من يخالف تعليماته ، كما يطلب تصريحا من كل من يبدأ في تزبيل بيته لأن خلط الزبالة في الطرقات يساعد على انتشار الذباب وعليه يجب أخذ تصريح من سلطات الصحة يحدد الأيام المصدق بها لعملية الزبالة •

وقد يحدث أن يمر المفتش على الحي في فترات العطلات الصيفية فيجد الصبية يلعبون كرة الشراب في الشوارع وعند مروره يوقف الصبية اللعب ويقفون بجانب الطريق وأكفهم تشترك في تصفيق حاد ، وقد حدث أثناء احدى هذه المرات أن تقدمت امرأة فقيرة ، توفي زوجها حديثا ، وترك لها عددا غير

قليل من الأبناء والبنات تقدمت لبرامبل بعريضة تشكو فقرها وعدم امكانها دفع العوائد عن المنزل ، وتطلب منه اعفاءها والتصديق لها بفتح كنتين فـي ركن المنزل تؤجره لاعالة الأطفال ، وترجو اعفاء ابنائها من ريال المصاريف في المدارس ، وعندما فهم برامبل تفاصيل الاسترحام ، وافق فورا عـلى كل طلباتها ثم نقدها جنيها كاملا من جيبه فزاد الصبية في تصفيقهم وتأثروا كثيرا وانطبعت في نفوسهم هذه الصورة وخاصة عندما قالت المرأة (الانجليز لا يموتوا ، لا يفوتوا) •

الانتقام

موسم لعب البلي يبدأ دائما مع العطلة الصيفية وقد كان (حريصا) في لعب البلي وله (ضراب) من الحديد يسمى (ا لجلة) وهو في أصله مستخرج من بلالي (السيارات) أو البلالي الحديدية الملساء والتي توضع داخل حلقات من الصلب لتصبح حاملات لبعض أجزاء السيارات المتحركة وعند تلف بعضها واستبداله بآخر جديد يخرج الصبية هذه الكرات الصغيرة لاستعمالها (كضراريب) للعب البلي ، وعادة ما يستعمل الضراب في لعب المثلث • أما بلي الطقاشة والذي يدحرج بالاصابع فيستعمل فيه ضراب من الزجاج ، وميادين البلي تجهز تحت حيطان الحي حيث يمتد الظل في الصباح أو بعد الظهيرة وعندما ينتظم موسم اللعب تصبح أطراف الطريق نظيفة ملساء من جراء تنظيف الصبية لها وزحفهم عليها أثناء اللعب • وكثيرا ما يثور الجدل والعراك نتيجة للمغالطات التي تحدث أثناء اللعب ، والصبية الذين اشتهروا باثارة العراك أثناء اللعب يسمون (خرخارين) واذا دعى أحدهم صبيا آخر الى اللعب معه ولم يكن معهما ثالث امتنع الصبي عن اللعب وقال للآخر (ما بلعب معاك أنت خرخار) فيحلف الآخر بأنه لن يخرخر واذا زادت الحيرة بالصبي الأول ولم يحضر أي صبي الى الملعب فقد يضطر الى اللعب ولكنه يكرر الاشتراط بقوله : (طيب تعال نلعب لكن مافينا خرخرة) •

وقد لعب صاحبنا مرة مضطرا مع أحد هؤلاء (الخرخارين) وكان الحظ والحرفنه في جانبه فتمكن من كسب جميع الدورات التي لعبها معه واستولي

على كل البلي الذي كان بحوزته ، وكان الصبي الآخر يسلك (جلة) كبيرة أحضرها لــه قريبه الميكانيكي الــذي يعمل في ورشة القندقلي التي كانت بالقرب من سينما برمبل (قديس عبد السيد) عندما كانت تقوم على المربــع شمال السينما الوطنية الحالية بأم درمان ، لقد حاول صاحبنا مرارا اغراء هذا الصبي ببيع جلته الكبيرة فلم يفلح وواتته الفرصة هذه المرة فطلب منه الصبي أن (يرمي لــه على) أي على الضراب ومعنى هذا أن يضع هو البلي عــلى المثلث فإذا تمكن هو من كسب اللعبة فله الحق في الاستيلاء على الضراب الذي يستعمله اللاعب الآخر ، (فرمى لــه على) وتمكن من كسب اللعبة ولكن الصبي مدمن الخرخرة بدأ في المغالطة وقال ان (الجلة) تساوي ثلاثة بليات فوافق هو (ورمى له على) مرة أخرى وكسب وثالثة وكسب ، لكن الصبي عزت عليه جلته فخطف البليتين من على الارض وقال له (أنا بطلت) وعندما حاول هو الاستيلاء عليها بــدأ الصبي في الصياح والبكاء فتركه في هدوء وعاد الى منزلهم وبعد أن تأكد من اخفاء كل ما لديه من بلي رجــع الى الصبي فوجده جالسا على الظل فحياه وجلس بقربه ولاطفه وآنسه حتى أنس له ونسي القصة ثم قال انه عفى لــه الجلة ولكن بشرط ألا يخرخر مرة أخرى ، ثم غير مجرى الحديث لبعض الوقت ، ثم عاد اليه وطلب منه رؤية الجلة فقدمها لــه الصبي بكل ثقة وبراءة وعندها أطلق ساقيه للريح فصرخ الصبي الآخر وجرى خلفه الى أن دخل منزله فدخل الصبي خلفه ولكنه قرر أمرا وواصل الجري حتى دخل (المستراح) ورمى الجلة فيه وكان لوقــع سقوطها في المــاء (جنبلغ) نغم جميل في أذنه ثم خرج ليجد الصبي أمامه والدموع في عينيه فقال له : (ادخل جيبه والله خوجلي نفسه ما يقدر يسرقها) وخوجلي هذا رجل أكول وظريف يقوم بأي عمل ومــن بين أعماله اخراج العتوت اذا سقط في (المستراح) واخراج الجزلان والساعة أيضا وكثيرا ما يحدث • وشعر بلذة الانتقام وخاصة ممن خدعه •

مشروع العيد

« حي الموردة منطقة قديمة وعريقة من مناطق أم درمان وهي تشمل أحياءا متعددة من حي الضباط في طرفها الشمالي الشرقي حتى حي بانت في طرفها الجنوبي ، كما تشمل أحياء أخرى مثل حي المغاربــة وحي العمراب وقد اشتهر حي الموردة بقدمه وعراقته وما قدمه لام درمان والسودان من قادة ومفكرين وأدباء ورياضيين ، ولقدم الحي وارتباط عوائله ارتباطا شديدا يفوق مرتبة القرابة نشأ أبناء الموردة وهم يتعصبون لحيهم ويفخرون بانتمائهم لــه يذودون عنه ويدافعون عن سمعته وعن التعدي عليه .

وهــذه الواقعة التي أرويها هنا لا تمس الموردة في شيء وقد تحدث في بيت المال أو الدبابيغ أو حي العرب في ذلك الزمان البعيد فجميع هذه الاحياء لها أبناؤها المتعصبين لها ولها عفاريتها مــن الصبية الذين اشتهروا مثل المرحومين كبس وجعفر طه أسكنهما الله فسيح جناته » .

كان يوفر كل يومين مليما من (حق الفطور) فقد كانت حصته تعريفة واحدة كل يومين تعطيها لــه والدته ليشتري نصف عيش صغير وقطعتين من الطعمية ، ولكنه كان حريصا أن يوفر بعض المــال فالعيد قد اقترب وهــو يخطط لمشروع كبير يود تنفيذه في العيد ومن أجل هذا المشروع آثر أن يكتفي بقطعة واحدة من الطعمية مع نصف العيش الصغير التي يبيعها (عــم

محمد) . كان عم محمد محمدين رجلا قصير القامة ممتلئا بعض الشيء ، وله شارب كبير مفتول ، ويجر أمامه عربة كبيرة تشبه الصندوق الخشبي الكبير ولها عجـلات صغيرة ، وفي فسحة الفطور يتزاحم التلاميذ الصغار حول العربة ، وعم محمد يناولهم الفطور بسرعة ومهارة وبعد الفطور يجـد جرادل الماء البارد مرصوصة في جزء من البرندة الطويلة رصها عم جادين ووقف عم جادين داكن البشرة مفتول العضلات رغم تقدم السن يحمل فـي يده غصنا طويلا من شجر النيم يسنع بـه التلاميذ من دخول المزيرة التي يغلقها بمفتاحها ولا يعطي التلاميذ الا ما يتجمع من المـاء البارد تحت الازيار (القناويه) في فترات الفسحة .

وكان الفطور قليلا جدا لا يفي بحاجته فكان اذا خرج من الفصل في ما كان يسمى بالفسحة الثانية أي الفسحة القصيرة التي يخرج فيها التلاميذ بعد الحصة الرابعة حوالي منتصف النهار ، اذا خرج في تلك الفسحة يسمع صوت أمعائه من الجوع وكان يرى أولاد الاغنياء يأكلون (الباسطة) في تلك الفسحة ويشربون الكاكاو من عم المهل ، أما هو فيعود الى مكان فطوره في الصباح فيجد ما تبقى من (الدقة) وهي خليط من الشطة والملح والشمار فيلعق قليلا منها وعندها يحس ببعض الحرقـان في فمه فيدفعـه هذا الى شرب قليل من الماء ، وبهذا يمكنه سد رمقه فيما بقي من وقت حتى يعـود الى منزلهم للغداء . وبالرغم من أنه يعتبر نفسه من أولاد الفقراء الا أن هنالك طبقة أخرى من التلاميذ لا تحضر معها (حق فطور) وهؤلاء يتخصصون في المرور على حلقات الفطور يسألون التلاميذ الآخرين (أديني حتة) فـكان هنالك الكرام من التلاميذ الذين يتفضلون عـلى اخوانهم (بحتة) وهنالك البخيل الشحيح الذي يقول (أبيت) صورة مصغرة لمجتمع كبير عاش ورآه بعـد سنين .

جمع المليمات يوما بعد يوم حتى أتى العيد ، وعندها بعد أن انتهى من

صلاة العيد وتناول الافطار مع أهله ، خرج الى السوق وأجر دراجة صغيرة ركبها وتوجه نحو الخرطوم فهذا هو مشروعه الكبير وعندما تعدت الدراجة حي الهاشماب أسرع في سيره كأنه في سباق لأن حي الموردة يبدأ عادة بنادي الضباط وينتهي بكبري أبو عنجة وهذه في نظره منطقة خطرة لأن بها (كبس الجبه وجعفرطه) وغيرهم من أشقياء الصبية هوايتهم قطع الطريق (لأولاد السوق) وأخذ ما بجيوبهم من تعاريف ، وفعلا كانت العصابة تنتظر داخل الزقاق الضيق بعد نادي الضباط وتضع نقطة مراقبتها في طرف الزقاق وعندما وصلت دراجته بمحاذاة الزقاق خرجت ثلاث عجلات يركبها صبيان أكبر منه سنا مقاطعة (شارع الظلط) ولكنه أسرع بالدراجة التي مكنته من الافلات من الهجوم الجانبي وصار كأنما ركبت على أرجله أجنحة واستمر في طيرانه حتى وصل الى محطة عشرين ، أي محطة الترام التي في أول الكبري ، وعندها نزل من الدراجة واقتادها الى جانب الطريق وجلس على المقعد الحجري بالقرب من المحطة حامدا الله شاكرا نعمه سعيدا بجدارته التي أفلتته من (كبس وجماعته) ولم يفكر في العودة بل سبحت به الأحلام في مشروعه الضخم في الخرطوم •• وركب دراجته بعد أن تأكد من خلو الطريق من السيارات والقضيب من الترام وأخذ اليسار البعيد للطريق حرصا وخوفا حتى تعدى الكوبري وبدأت متعته بالعيد بعد خروجه من الكوبري مباشرة، فقد أوقف ساقيه عن الحركة وترك العجلة تسير بقوة الانحدار الناتج عن نزول الطريق من الكوبري حتى مستوى المدينة ، استمر في سيره حتى وصل الى جنينة الاوقاف ، كان يدير هذه الحديقة الكبيرة قريب له ورث ادارتها عن أهله فدخل الحديقة والتقى بقريبه الذي يحبه وبعد أن تمت التحيات والسؤال عن الأهل وأكل قليل من الكعك والحلوى خرج الى الحديقة الكبيرة وسار فيها على غير هدى ـ وهذا جزء من مشروعه ـ حتى وصل الى منطقة شجر الجوافة فوجدها كما توقع قد ثقلت أغصانها بالثمر فصار

يقضم الجوافة في تلذذ عجيب ، أولا لأنها لذيذة وثانيا لأنها بلا نقود وثالثا لأنها يقطفها بنفسه من الشجر ، أكل حتى شبع ثم رجع الى أقربائه في مكان سكنهم داخل الحديقة وتـرك دراجته عندهم خوفا عليها مـن السرعة أو (التنفيس) فهناك مجموعة من الصبيان الشياطين تنفس الدراجات باخراج الهواء مـن اطاراتها مكايدة وعفرته ، تـرك الدراجة وبدأ في تنفيـذ المرحلة الثانية مـن مشروعـه •

ذهب راجلا الى حديقة الحيوان المجاورة ووقف عند الباب ينتظر حتى رأى امرأة توسم فيها الطيبة فتقدم منها قبل أن تصل الى شباك التذاكر وقال لها (دخليني معاك يا خالتي) فكانت عند حسن ظنه بأن سمحت لـه بالامساك بطرف ثوبها ثم نصحته (سمح اتقاصر) وبناء على نصحيتها حاول انقاص طوله عـدة بوصات بأن ثنى ركبتيه وهو يمشي خلفها حتى تخطى شباك التذاكر ودخل دون أن يدفع مليما وشعر بسعادة فائقة لنجاح المرحلة الثانية من مشروعه كما خطط لها • وفي داخل حديقة الحيوان لم يعرف مرحه حدودا ـ لعب وجرى وشاجر وأطعم الفيل وأطعم فرس البحر الذي يفتح فمه بالقدر الذي يدخل طفلين من حجمه وطارد الطيور الأليفة التي تمرح في فناء الحديقة بالرغم من تحذير الحراس ، وعندما انتصف النهار مـر على صبية يأكلون البقلاوة فتذكر فجأة المرحلة الثالثة من مشروعه •

خرج من الحديقة وهو كاره الخروج وذهب الـى أقربائه في حديقة الأوقاف وأخـذ دراجته وتوجه نحـو الخرطوم وكان موقفه التالي مثـ[illegible]ى (الحلواني) ، مكان جميل يقع في ناصية الطريق حيث يقوم البنك التجاري الآن ، مناضد نظيفة من الرخام وكراسي مصطفة حولها وفي الداخـل تقبع البترينات الزجاجية الجميلة مكتظة بأنواع الكيك والبقلاوة والكنافة والفطير وغيرها ، يسيل لها اللعاب ، دخل المحل وطلب (بقلاوة بالكريمة) وهـذا مشروعه الثالث ، أكل واحدة وطلب ثانية وثالثة حتى كـاد أن يتعذر عليه

التنفس ثـــم جلس قليلا يرقب دراجته من خلال النافذة الزجاجية ثم طلب كوبا من الماء المثلج احتساه في تمهل ومتعة ثم نقد الرجل خلف البترينة أربعة قروش ونصف هي ثمن تلك البقلاوات الثلاث ثم خرج للطريق وهو فـــي منتهى السعادة .

كر راجعا الى أم درمان ، وكأنما عاد من القطب الشمالي ، سعيدا بما حقق ، فرحا بما ناله من متعة ، وعندما وصل الى محطة عشرين تذكر (كبس الجبه وجماعته) فأحس بمغص حاد في وسط معدته وشيء من السخونة في أطرافه فجلس مرة أخرى على المقعد الحجري عند محطة عشرين وصار يفكر ويخطط للعودة ، هل يعود مجازفا عن طريق الموردة أم يتحول الى شارع الأربعين المترب الذي ليس بـــه ظلط وهناك خطورة أولاد أبو كدوك ولكنها أقل خطورة من (كبس) ، أم يتخذ طريق النيل وفيه خطورة أقل على احتمال وجود بعض أولاد الموردة في حديقة برمبل واستقر رأيه على العودة عـــن طريق الأربعين وقال في نفسه ان السعادة لا تدوم وان بالدنيا منغصات يجب أن يضعها المرء في الحسبان ، الا أنها يجب ألا تفسد السعادة ..

قصة صديق

كان لصاحبنا صديق في الحي في مثل سنه و (عفرتته) أراد أن يذهب الى الخرطوم في نفس العيد الذي ذهب فيه صاحبنا ، اذ كان للصديق مشروع مماثل لمشروع صاحبنا الا أن المغامرة قد تعرضت لأحداث مختلفة عن ما حدث لصاحبنا .

خرج الصديق من منزلهم في حي الرباطاب وذهب الى السوق وأجر عجلة (ليلية) وكان ايجار العجلة (الليلية) أمرا يختص به أولاد التجار وذوي الدخل المحترم فقد كانت الليلية — وهي ابقاء العجلة طوال الليل وارجاعها في الصباح — تكلف الكثير من المال قد يصل الى عشرة قروش أو خمسة عشر قرشا حسب نوع العجل والانارة هل بالدينمو أم بلمبة جاز وشريط وهل العجلة دبل — ذات اطار كبير — أم عادية ، المهم في الأمر أن الصديق قد أجر عجلة دبل ، ولعلمه بما سيقابله من صعاب في الطريق اشترى (بسطونه) وهي عصاة رقيقة من الخيزران وضعها بشكل منحني تحت السرج وتستند الى ما بين البدالين بالقرب من الارجل وركب العجلة واتجه نحو الخرطوم .

وعندما وصل الى منطقة الخطر بالقرب من نادي الضباط خرجت له الجماعة ، ولكنه لم يكن قديرا في ركوب العجلة مثل صاحبنا كما لم يكن محظوظا مثله ، فقد تمكنت الجماعة من ايقافه وأول ما فعله رئيسها أن سحب

البسطونه من تحت سرج العجل وعاجله (بمحطة) منها في مؤخرته وقال له (يعني عامل راجل جايب معاك بسطونة) فرد صاحبنا وقد ألهبت (المحطة) مؤخرته : (أنا جايبها لأولاد المقرن) ، ثم طلبوا منه اعطاءهم ما عنده من مال ـ فقال لهم (والله ما عندي ولا تعريفة وكان مكضبيني فتشوني) وكان حريصا مقدرا للأمور عواقبها فقد أخفى ما عنده من مال جمعه بالكد والتوفير طيلة أيام رمضان أخفى جزءا منه داخل الحذاء وأدخل ريالا داخل (تكة) السروال ، وعندما فتشوا جيوبه ولم يجدوا فيها شيئا خاب ظنهم ـ وكان من بينهم أحد زملائه في المدرسة ـ وتركوه بعد أن أصابه كبيرهم (بمحطتين) من بسطونته على مؤخرته ، فتوحوح وحك مؤخرته وركب العجلة تاركا لهم البسطونة وانطلق الى الخرطوم وهو لا يكاد يصدق أنه نجى بأقل خسائر .

وأمام حديقة الحيوان في الخرطوم وبالقرب من الشجرة المتشابكة الأغصان على جنوب الطريق وجد اثنين من لاعبي (الملوص) وشخص ثالث يتفرج عليهما ظهر في آخر الأمر أنه ثالث لهما ـ وجد الاثنين يلعبان (الملوص) أحدهما يمسك بالشريط الذي يشبه شريط لمبة الجاز ويلفه بطريقة دائرية ثم يطلب من الآخر أن يدخل قطعة من السلك الصلب في أحد الفتحات المتكونة من تكور الشريط فاذا تمكن من معرفة الفتحة التي تكون بداخل الشريط المطبوق على نفسه أعطاه الآخر عن قرشه عشرة قروش وان فشل في ذلك فقد القرش ، وقف الصديق يشاهد هذه اللعبة وفي كل مرة يتمكن اللاعب من معرفة الحلقة وفي كل مرة يدفع الآخر العشرة قروش ، فتشجع الشخص الواقف وجلس هو الآخر واشترك في اللعب ، فصار يكسب هو الآخر وبنفس السهولة ثم دعاه هذا الأخير للجلوس وأعطاه قطعة السلك ، وقال له جرب على حسابي وفعلا وضع السلك في الفتحة التي اعتقد أنها الصحيحة وفعلا ظهر أنها الفتحة الصحيحة فأعطى صاحب الشريط

الآخر عشرة قروش ، عند هذا وصل الاغراء بالصديق حـدا يصعب مقاومته فطلب منهم اعطاءه فرصة اللعب وأخرج (شلنا) مما أخفاه داخل الحذاء وبدأ اللعب وكم كانت دهشته عندما وضع السلك في الفتحة الصحيحة وفجـأة طلعت (ملوص) أي تخلص الشريط بقدرة قادر من السلك المغروس على الأرض فحاول مرة أخرى وثالثة ورابعة وفي لمـح البصر طار الشلن وفي كل مرة يعتقد بأن هذه المرة هـي المرة الرابحة والتي سترجع له كل خسارته مضاعفة وصار يخرج (الشلنات) تارة من الحذاء وأخرى من الطاقية وثالثة من التكة وهكذا حتى تحولت جميع مدخراته في لحظات الى الطرف الآخر .

اسودت الدنيا أمام عينيه وصار يرى اللاعبين مهزوزين كأنهما خلف مرآة تالفة فقد كانت دموعه حائلا بينه وبينهم وهو لا يدري أنه يبكي وقـد اختفى اللاعب الثالث وبـدأ اللاعب الثاني في التحرك ففطن الصديق الى الخدعة وبدأ يصرخ فعاجله لاعب (الملوص) بصفعة في خده ثم أعطاه شلنا واحدا وقال لـه (اسكت) ولكن الصديق واصل الصـراخ وعندما رأى جندي البوليس من بعيد زاد من صراخه وصار يقول (أدوني قروشي) أنا مالي ، عاوز قروشي فأعطاه لاعب (الملوص) شلنا آخر وجره من يده الى المنخفض جنوب الشارع والذي لـم يكن جزءا من الحديقة في ذلك الوقت وقال لـه (تفتح دينك تاني بكسر رقبتك احنا خرتناك خمسة وعشرين قرش أهو شلن يبقى ادبناك خمستاشر ، أصلك داير تنهب ؟ النادالك منو ؟) وفي شيء من الخوف وشيء من حمد الله على أكثر من تلت المال كما يقول المثل دخل الصديق حديقة الحيوان بعد أن أخذ درسا لا ينساه .

دخل حديقة الحيوانات وأمتع نفسه بالمرور عليها ثم شرب زجاجـة من الجنبيره ابتلع بها ما بقي في حلقه مـن قصة البكاء حتى تدشى وشعشعت كربونات الجنبيره في أنفه ثم خرج من حديقة الحيوانات وركب دراجته التي (أمنهـا) لصبي يعرفه عند باب الحديقة واتجه شرقا بشارع النيل وكان في

ذلك الزمان يسمى شارع كتشنر ومــر أمام الفندق الكبير ونظر اليه وكأنه شيء محــرم عليه دخوله ولا يمكنه أن يتخيل ما يجري بداخله ثــم اتخذ الطريق الذي يفصل بين الفندق وكنيسة ومدرسة الأقباط حتى وصل الصينية ثم عرج يسارا على شارع غردون الى أن وصل المنتزه الكبير القائم أمــام القضائية والذي كان يمتد بين القضائية والغرفة التجارية والذي أقيم فيه مبنى البرلمان فيما بعد ثــم تحول الى قاعة الشعب ومحكمة الخرطوم ، وقبل أن يوقف عجلته في ذلك المنتزه شاهد أحد اصدقائه في الحي يقف أمام مكتب الخبير الاقتصادي (المصري) في أول الشارع في انتظار ترام الدوران الذي تبدأ محطته من مكتب الخبير الاقتصادي • نزل وسلم على صديقه وعــرف منه أنه حضر بالترام من أم درمان وانه ينتظر ترام الدوران ليأخذه الــى بعض أقربائه الــذين يسكنون في الطرف الجنوبي مــن المدينة بالقــرب مــن المستشفى •

ترك صديقه ودخــل المنتزه وتحت الأشجار الظليلة كان يجلس بعض بائعي البطيخ فاشترى بطيخة متوسطة الحجم بقرشين وجلس تحت شجرة لبخ كبيرة عــلى كنبة من الخرسانة وأسند دراجته عــلى الشجرة وكسر البطيخة وصار (ينخر) فيها بأصابعه ويأكل حتى ترك نصفها كالقرع المستدير فقد كان البطيخ في ذلك الزمان مستديرا كالكرة ولم يكن السودان يعرف بعد أنواع البطيخ الروثسان المستطيل وبعد أن شبع الصديق من أكل البطيخ ترك ما تبقى وغسل يديه في جدول مــاء يسر تحت الشجرة ثم ركب دراجته واتجه نحو شارع كتشنر ثــم اتجه شرقا حتى وصل سراي الحاكم العــام ووقف قليلا ليمتع نفسه بمنظر الحرس الانجليزي الذي يسير جيئة وذهابا أمام القصر وهو يرتدي ملابسه الاسكتلندية المزركشة والتي كانت السبب في تسميتهم (أبين رحاطه) لأنها لا تشبه البنطلون الطويل أو القصير بــل هي أقرب الــى الرحط •

ثم واصل سيره محاذيا شاطىء النيل ومتجها شرقا مارا أمام منازل الانجليز ، فقد كانت جميع المباني الواقعة على النيل يسكنها الانجليز . وعندما وصل الى نهاية مستشفى النهر أدهشه أن يرى المرآة الكبيرة المقوسة المنصوبة على يسار الطريق والتي من خصائصها اظهار القادمين على الشارع الواقع شرق المستشفى لمن يسير على شارع كتشنر واظهار القادمين على شارع كتشنر لمن يسير على الشارع الواقع شرق المستشفى ، وقف قليلا يستمتع بسحر تلك المرآة ثم واصل سيره حتى كبري النيل الأزرق حيث حمل العجلة فوق السلم المنصوب على الكبري ودخل الكبري بعجلته في طريق مرور العجلات والمشاة وركب العجلة حتى وصل الى الخرطوم بحري .

اتجه بدراجته الى الضرائح ــ وهي ضرائح الختمية ــ فهي احدى أمكنة التجمع في العيد وبالرغم من أنه من أبناء الانصار وأنهم زاروا القبة في الصباح وأدوا صلاة العيد مع السيد عبد الرحمن في ود نوباوي الا أنه أراد الذهاب الى الضرائح لما فيها من أشياء لذيذة تباع للصبية أمام الضرائح ، وبعد أن قضى بعض الوقت في الضرائح اتجه الى معدية شمبات وهناك تحت الظلال الوارفة وجد بائع البلح الرطب المسموح بالزيت والجوافة ، وقد راعته الخضرة الطاغية والظلال الوارفة الباردة فاشترى جوافة بتعريفة وبلح بثلاثة مليمات وأكل حتى شبع للمرة الثانية بعد أكل البطيخ ثم انتظر المعدية التي أخذته ودراجته الى أبي روف .

ركب دراجته بعد أن استقر خارج المعدية وسار محازيا النيل متجها جنوبا وعندما وصل الى (أم سويقو) وهو السوق الصغير في الجزء المنخفض من حي بيت المال وجد بعض الصبية حول المراجيح في تلك المنطقة ولكنه آثر السير فسمع بعضهم يناديه (هوي يا ... أنت يا .. هنا يا) وهو نوع من المعاكسة يقوله الصبية للغرباء عند دخولهم الحي ، ولعلمه أن أولاد بيت المال لديهم الروح العدوانية مثل أولاد الموردة وهو لم ينس ما أصابه في

صباح نفس اليوم أسرع في سيره حتى وصل ورشة الحجر ثم واصل السير الى أن وصل منطقة (النسر) ولكنه لم يستحم مع الصبية فقد كانت الشمس قد مالت الى المغيب وحاول الصعود الى صهريج المـاء القديم المطل في تلك المنطقة ، والذي كان يسميه الصبية (الحـلة) لتشابهه مـع حلة النحاس المغطاة ولكنه عندما لاحظ وجود بعض الصبية حول الصهريج خاف عـلى عجلته وآثـر زيارة (برأبو البتول) الوالي المدفون في تلك المنطقة وقطـع شريطا من احدى الرايات المنصوبة عند الضريح وربطه في ذراعه ووضع تعريفة على الضريح (كزواره) وتمسح من تراب الضريح سائلا الولي مساعدته في الامتحانات القادمة ، وربط الشريط على الذراع كان مـن العادات المتبعة لجلب السعد والتوفيق ، ثم ركب عجلته واتجه الى حيهم مخترقا جامـع الخليفة ثم شارع العرضة الى أن وصل الى منزلهم سعيدا منهوك القوى ، بعد يوم حافل بالأحداث مؤمنا بأن السعادة قـد تكلف الجهد وبعض التعب وبعض الوقت .



سرقة العجور

كان ذلك في عيد الاضحى منذ زمان بعيد ، خرج من منزلهم بأم درمان لزيارة صديق لـه في الدراسة ، وكان منزل الصديق في حي بيت المـال ، سار على قدميه حتى وصل السوق وفكر في المرور على (الملجة) خلف ميدان المحطة الوسطى حيث يجري الاحتفال الحقيقي بالعيد ، دخل الملجة من جهة دكان غالب أحمد عيسى أي مـن الجهة الشرقية فوجدها تكتظ بالأطفال والكبار ووجد الكبار يتجمعون حول طرابيز الكشكوش ، أما الصغار فكانوا على جماعتين جماعة حول المراجيح ذات الصناديق المربعة التي تدور وتـدور بالأطفال حتى يصرخ بعضهم ويتقيأ البعض الآخر وجماعة حول سوق الزلعة ، سوق الزلعة بـه سلطة الروب اللذيذة ذات الشطة الساخنة وفيه الطعميـة والطرشي وغيرها من المأكولات اللذيذة ، صحن سلطة الروب بسليم وطعميتين بسليم وصحن الطرشي بسليم ولكنه عندما نوى شراء ذلك تذكر دعوة الفطور عند صديقه فبلع ريقه وسار في طريقه حتى وصل الى الحلواني المصري وهنا لـم يتمكن من المقاومة فاشترى بقلاوة واحدة وشرب كوبا من الماء المثلج ثم عاد الـى المحطة الوسطى .

ركب الترام وفي ذهنه ألا يدفع التذكرة ولـذا ركب في آخر الترام ، وعندما تحرك الترام بـدأ الكمساري في قطع التذكرة من الدرجة الاولى في أول الترام وهو يرقبه من طرف خفي وكان الكمساري الماكر غير خطته

عندما تحرك الترام من محطة ود أرو ، فبدلا من أن يواصل قطع التذاكر على نفس النظام غير مكانه الى آخر الترام وبـدأ في طلب التذاكر ، قام صاحبنا من مقعده ووقف على السلم وعندما دخل الكمساري أمام المقعد بدأ يتحرك نحو مقدمة الترام وهنا زاد الترام من سرعته في (كشه) ود البنا وعندما لاحظه الكمساري ترك قطع التذاكر وبـدأ يطارده فصار يدخل امام الكنبات مـن جانب ويخرج من الجانب الآخر ليقف عـلى السلم وعندما يحـاول الكمساري اللحاق بـه من نفس الطريق يعاود الكرة ثم يقفز من عربة الى عربـة ، الركاب ينظرون الى الموضوع دون مبالاة وكأنهم يتمنون الا يلحق بـه الكمساري وعندما خفض الترام سرعته قبل الوصول الى محطة الشجرة نزل (عكس) فسمع الكمساي ينعته بأقذع الشتائم ولكنه لم يأبه فقد كان سعيدا بعدم دفعه تعريفـة الترام .

ذهب الى صديقه وقص عليه القصة وهو يضحك وبعد أن فطرا بشيء من (الربيت) وشيء من اللحم البايت المسخن وشربا الشربوت الذي يعمل دائما في مثل هذه المناسبات ، قررا الذهاب الى الحلفاية ، فسارا حتى وصلا مكان المعدية واستقلاها الى شمبات وقد تولى صديقه دفع أجرة المعدية لأنه من أولاد الموظفين وقد منحه أبوه خمسة وعشرين قرشا عيدية ، ومن شمبات سارا بمحاذاة الشاطيء حتى وصلا الى حديقة البلدية بالخرطوم بحري ومنها اتجها الى توتي عبر مجرى النيل الجاف الذي يفصل بين توتي والخرطوم بحري في أوائل الصيف وعندما وطئت قدماهما توتي راعهما حقل كبير مـن العجور فبدأا يقضمان العجور بسعادة وصار صديقه يقص عليه كيف أنهم أكلا بطيخا في هذا المكان في السنة الماضية وشاما في السنة التي سبقتها فقد كانت فكرة زيارة هذا الجزء من توتي من أفكار صديقه وفجأة سمعا صراخا وسبابا غير بعيد ولمحـا رجلا يحمل غصنا من الشجر يجري نحوهما فمـا كان منهما الا أن اطلقا ساقيهما للريح وصار الرجل يجري وهما يجريان حتى

وصلا الى حديقة البلدية وواصلا الجري حتى دخلا الخرطوم بحري وهما يلهثان من الجري والتعب والضحك والخوف معا ومن المحطة الوسطى استقلا ترام (السمع ـ الذي كان يسير بالبخار حتى معدية شمبات) وترام السمع في حقيقته قطار صغير ضيق القضيب يستعمل الفحم الحجري وله صفارة مبحوحة كالطفل الصغير اذا اعتبرنا صفارة القطار صوت رجل كبير ، وهو يهتز في سيره شمالا ويمينا في نفس الوقت الذي تتحرك فيه قاطرته الى الامام . وكان يبدأ خطه من أول شارع شمبات من جهة الشرق ويسير حتى معدية شمبات وله محطات متعددة في حلة خوجلي قبالة الضرائح وحلة الدناقلة والصبابي التي كانت تعتبر بعيدة عن الخرطوم بحري وهكذا حتى يصل المعدية وقد كان هذا المشوار يعتبر بعيدا جدا .

وقد تولى صديقه دفع كل النفقات وفي الترام بدأ ضميره يؤنبه وتذكر حديث والده عن أكل الحرام وأن الذي يأكل الحرام لا يستجيب الله دعاءه وتذكر أنه سأل الله هذا الصباح أن يطلع الأول في الامتحان وصار يفكر هل السرقة اللاحقة تمنع الاجابة السابقة ..



علي طـــايوق

لـه صديق يسكن جارا لـه في الحي ويذهبان معا الـى المدرسة ، وعادة ما يستيقظ صاحبنا مبكرا ويأكل أو يشرب ـ أي العسلين أسهل ـ عصيدة الدخن باللبن وعليها خيط من السمن البلدي ، ثـم يحمل حقيبته ويخرج للذهاب الى المدرسة . ثم يعرج على منزل صديقه فيجدهم جميعا ، عددا من الصبية يجلسون أو ينامون على عدد من العناقريب المتراصة . بعضهم يتغطى بثياب الدمورية والبعض الآخر ببعض الملابس القديمة فيحيي والدهم الرجل الطيب الكادح ويجلس على طرف العنقريب في انتظار صديقه ؛ عدد غير قليل من الصبيان والبنات . والأم السمحة الرضية تجلس على (بنبر) وأمامها الموقد الصفيح تعد الشاي لهذا العدد ، امرأة جميلة تبدو دائما أصغر من سنها كثيرا ؛ لا يذكر أنه رآها يوما غاضبة أو مهمومة بالرغم من أن الوالد رجل بسيط يعمل حدادا في سوق الحدادين قبالة زريبة العيش في أم درمان ولكنها عائلة راضية طيبة شاكرة لله نعمته على ما قسم ؛ فهو لم يقسم المـال ولكنه قسم الأبناء النجباء ثـم أسبل عليهم الستر وهو نعمة كبيرة .

وقد يذهب مع صديقه الى دكان والده في بعض العطلات فيجد الصديق ووالده يرتدون ملابس العمل المتسخة السوداء ؛ صديقه يجلس خلف الكور ينفخ في النار على الأرض والتي تقاد بالفحم الحجري ، ووالد صديقه يخرج الحديدالأحمر المتقد من النار ويدقه على السندان بمطرقة صغيرة ويقف أحد

العمال يحمل مطرقة كبيرة فتنبعث أنغام شجية من عملية الطرق تشبه موسيقى صندوق الموسيقي الصغير الذي صار يشتريه لأبنائه بعد أن كبر وأعطاه الله المال الا أن أنغام الحداد عالية صارمة • وكان يقضي الساعات أمام وهج النار المحرق بالقرب من صاحبه مندهشا للطريقة التي يبدل بها صاحبه يديه في نفخ الكور فهو يرفع يده بقربة الكور اليمنى ثم يفتح أصابعه فتنفتح القربة وتمتلىء هواءا ثم يغلقها ويضغط عليها فيندفع الهواء خارجا من البوصة المغروسة داخل النار وفي الوقت الذي تنخفض فيه اليد اليمنى ترتفع اليسرى وتنفتح وتنقفل ثم يضغط وهكذا ، وكان دائما عندما ينظر الى صاحبه يذكر قول أبيه عن الرجل الكريم الذي لا تعرف يمناه ما تنفق يسراه ، فكان دائما يجلس ساهما ويفكر هل تعرف يمنى صديقه ما تفعله يسراه وكان يعرف أن لصديقه هذا عم ثري يصدر كل ما ينتجه سوق الحدادين من حراب متنوعة الأحجام والاشكال وملودات وحشاشات الى الجنوب حيث تباع بأسعار عالية وكان سوق الحدادين في تلك المنطقة مكونا من ثلاثة أو اربعة مربعات طويلة ، عمل دائم بالنهار والليل وصنعة رابحة وكفاح شريف من أجل لقمة العيش •

ولصديقه هذا أقرباء يعملون بتجارة الليمون ، فكانا يعملان معهم في العطلات المدرسية ، وسوق الليمون جزء من سوق الخضار في أم درمان ، مظلات طويلة مقسمة على التجار وكان يجلس خلف جوال مبلول بالماء وعليه يرص الليمون حسب أحجامه في أكوام ليمونتين بمليم أو خمسة بتعريفة وخلفهما الصناديق الكبيرة التي تحتوي على الليمون المغطى بأوراق العشر والموز لحفظ رطوبته فلم تعرف الثلاجات في سوق الخضار كما أن الليمون في تلك الصناديق تزداد صفرته فيغري بالشراء ، وكان يضع الملاليم والتعاريف التي يبيع بها تحت الجوال ويراقب السوق الذي يبدأ في السادسة صباحا ويمتد حتى منتصف النهار وقد حفظ العديد من الوجوه التي ترتاد السوق

فهناك الخدم الذين يعملون مع الموظفين وهؤلاء قليلو الحديث يشترون ما يقدم لهم بسعره دون جدل ، وهناك النساء بأعمارهن وأشكالهن المختلفة وقد عرف منذ حداثته أن بعض هؤلاء النسوة يحضرون الى السوق من المناطق المشبوهة فكانت أيديهن وأرجلهن مخضبة بالحناء ويتبادلن النكات والملح مع من بالسوق ثم يشترين ما يردن بأقل الاسعار وكان في الجانب المقابل لدكان الليمون يجلس عم التهامي وزوجته النزيهة ، شخصيتان لهما تاريخ عريق في سوق أم درمان ، يبيعان الزيت والسمن والودك ويجلسان على بنابر منخفضة وأمامهما صفائح الزيت والسمن عليها أكواز من الصفيح لها أيادي طويلة معكوفة الأطراف معلقة على أطراف الصفائح وكرات الودك مرصوصة على طست من الصفيح ذات أحجام مختلفة يشتريها الأعراب ليضعوها على هاماتهم خوفا من البرد ويمسحون بها مراكيبهم الجديدة التي تسمى كلود وتشتريها النسوة لعمل الدهن (الكركار) . وكان صوت حبوبة النزيهة أعلى من صوت التهامي فهو رجل هادىء سمح وكان صاحبنا وصديقه يشتريان الرغيف البلدي ثم يذهبان الى عم التهامي ويقولان (عم التهامي نقطة زيت) بعد أن يفتحا العيش البلدي أمامهم فكان عم التهامي (يقطر) الكوز داخل العيش فينزل زيت السمسم زكي الرائحة على العيش دون أن يتكلم عم التهامي أو يرفض ، تقليد متعارف في السوق درج عليه الصبية منذ زمان ، ولعم التهامي هذا حفيد اشتهر ببيع الطايوق بنوعيه طايوق الظهر وطايوق المخ ، كان نشطا حريفا في بيع الطايوق وكان يدرس في نفس المدرسة التي يدرس بها صاحبنا حتى اشتهر في الحي باسمه الجديد (علي طايوق) ، وبالرغم من أن علي طايوق ولد وتربى في منطقة من أشهر مناطق أم درمان في تخريج أشقى الصبية وهي منطقة (فريق العرب) ومنطقة (فريق الحلب) الا أنه منذ نشأته الاولى عرف بسماحة الخلق وطيب المعشر وعفة اللسان لم يتشاكس مع أحد ولم يعارك أحدا ولم يتعد علي

أحـد فأحبه الجميع ولكنه بالرغم من نشاطه وخفته في بيع الطايوق الا أنه كان دائما يتحاشى أنواع اللعب العنيفة مع الصبيان واذا لعب (الدافوري) وهي كرة القدم التي يلعبها الصبية بـكرة الشراب فضل الوقوف حارسا للمرمى وكان الصبية يظنون تصرفه هـذا تحاشيا للعراك والمشادة .

كبر الجميع وتدرجوا في مراحل التعليم المختلفة ، فكان علي طايوق من المبرزين في دراستهم ، صديقا حبيبا للجميع ، مرحا طيبا نال أعلى الدرجات في السودان ومن الخارج الا أن علته التي حرمته من الجري كالصبية الآخرين ومن العراك قد ظهرت بأنها ضعف في القلب تطور في مراحل متعددة وألزمه الفراش مرارا ولكنه بالرغم من ذلك ظـل في مرحه وطيبته وهدوئه حتى فارق الحياة .

ذرف صاحبنا دمعات غزارا على صديقه علي طايوق ، بكاه بحرقة وترحم عليه وعرف أن في هذه الدنيا المليئة بالشرور يوجد من يدخلها وهو طيب سمح ويخرج منها وهو طيب سمح لـم يؤذ أحدا بالفعل أو الكلم فالله جلت قدرته لن يضن على علي طايوق بجنته ورحمته .



حاج موسى

في الزمان البعيد كان هناك فضاء واسع يمتد من شركة النور (الادارة المركزية) بأم درمان حتى قضيب الترام وكانت الضبطية تقع في الركن الجنوبي الشرقي من ذلك الفضاء بحائطها المنخفض والذي تآكل جزء منه بشكل واضح نتيجة لاتخاذه ممرا يتسلقه المواطنون عند دخولهم الى الضبطية من هذا الاتجاه • وفي الركن الشمالي الغربي من الفضاء بالقرب من شركة النور توجد شجرة لالوب كبيرة عالية تجمعت الحجارة تحتها بأحجامها المختلفة وظهر عليها القدم وكستها السنون بشيء من الرهبة ، وقد كان الصبية في ذلك الزمان يخافون من أشجار اللالوب العالية لأن الحبوبات كن يروين عن الاشجار المسكونة بالشياطين والعفاريت وعن الدبايب (الثعابين) الطويلة التي تسكن تلك الاشجار والتي ربما تحرس الكنوز الدفينة القديمة تحت تلك الأشجار •

وفي الطرف الآخر من الميدان وبالقرب من الضبطية تقوم شجرات من اللالوب كانت احداها قريبة جدا من حائط الضبطية وكان أحد موظفي الضبطية يربط حماره تحت تلك الشجرة وكان من عادة الحمار عندما يتعب من الرقاد والتقلب تحت الشجرة يقف ويدور حول الشجرة حتى أنه بمرور الزمن أوجد حفرة منخفضة حول ساق الشجرة وترك الجنزير الحديدي آثاره على ساق الشجرة الأمر الذي أثر في صحتها فاعتلت ويبست وماتت وظلت لفترة طويلة بعد ذلك عودا جافا الى أن أزالتها الأيام مع غيرها ليقوم مقامها المجلس البلدي ودار المحاكم بأم درمان كما قام مركز البوليس في الجانب الغربي من الميدان •

وقد عرفت شجرة اللالوب الكبيرة الرابضة بالقرب من شركة النور والتي قام مركز البوليس في مكانها الآن ، عرفت بشجرة حاج موسى ، وحاج موسى هذا رجل ضخم الجسم أسوده ، يرتدي جلبابا كبيرا ذا أيادي لها فتحات واسعة وله وجه مفرطح كبير عليه عدد غير قليل من الخطوط الرقيقة والتي تدل على أنه أصلا من سكان غرب افريقيا وله لحية كثة عليها بعض شعرات من الشيب وصوته عميق أبح يحمل بيمينه دائما عكازة ضخمة وهو لا يسكن تحت الشجرة ولكنها مقيل له في بعض أيام الصيف الحارة أما سكناه فكانت في الغالب في العباسية في (فريق فلاته) وحاج موسى هذا لم يكن يؤذي أحدا بالرغم من شكله المخيف ومظهره المرعب ولكن الغضب يبدو عليه دائما فهو يدور في طرقات المدينة وخاصة مناطق السوق والعباسية والموردة يحمل عكازته الضخمة وعندما يصل الى أحد براميل الأوساخ السوداء التي توجد في أطراف بعض الأزقة يبدأ حاج موسى في ضرب البرميل بعكازته الضخمة وكأن بينه وبين البرميل ثأر قديم ويوجه للبرميل كلمات صارمة بلغة غير مفهومة وبعد أن يشفي غضبه من ضرب البرميل الذي يكون قد انقلب على الأرض ان كان خاليا من الاوساخ يواصل حاج موسى مروره على أزقة المدينة يتبعه الصبية من بعيد حتى ينتقل من حي الى حي فيعود الصبية الى حيهم ويتولى متابعته صبية آخرون من الحي الآخر .

وقد كان في ذلك الفضاء العريض ميدان لكرة القدم يلعب فيه فريق يسمى (تيم فاروق) كان أفراده من أبناء العباسية وحي الأمراء وحي الضبطية والارسالية والشيخ دفع الله ، وسمي بتيم فاروق لما كان للأمير فاروق أمير الصعيد في ذلك الزمان البعيد من شعبية لدى شبان ذلك الزمان .

وعندما قامت الحرب حفرت الحكومة خنادق عميقة وكثيرة في ذلك الفضاء يدخل اليها سكان الحي من جانبي الفضاء وموظفو الضبطية وشركة النور عند اطلاق صفارات الانذار فتعذر لعب الكرة في الميدان وانتقل أفراد

تيم فاروق الى مكان آخر في جامع الخليفة ثم تفرق أفراده وتشعبت بهم سبل الحياة فانفض سامرهم وانتهى تيم فاروق الا أن بعض شخصياته لا زالت عالقة بالاذهان مثلا أولاد عبد المحمود وعمر الضمري وغيرهم •

لقد عرف صاحبنا حاج موسى عندما أدرك وخرج الى الطريق يلعب مع الصبية فصار حاج موسى شخصية ذات طابع خاص وهو في نفس الوقت مظهر من مظاهر أم درمان في ذلك الزمان ، لم يسأل من أين جاء حاج موسى وما سبب جنونه ولماذا ينصب غضبه على براميل الاوساخ ولكنه ألف رؤية حاج موسى وكان يظن أن حاج موسى لا يكبر ولا يشيخ ولا يموت ولكن حاج موسى كبر وعلاه الشيب ثم اختفى حاج موسى ففقد صاحبنا شيئا من حياته أدركه بعد زمان فقد تغير الفضاء الواقع شرق شركة النور وقام مركز البوليس مكان شجرة حاج موسى وقد ظل يظن لوقت طويل أن الذين أزالوا شجرة حاج موسى وجدوا تحتها ثعبانا ضخما يحرس كنزا من أواني الفخار مليئة بالذهب ، ثم قام المجلس البلدي وتغيرت معالم المكان ولكنه مع ذلك ظل يذكر جده الرجل الوقور الشجاع الذي كان يجلس أمام داره قبالة ذلك الفضاء عندما تطلق صفارات الأنذار ويأبى دخول الخنادق مع الناس الذين كانوا يرتجفون خوفا ورعبا بل كان على عكس ذلك يخرج بندقيته وسيفه وحرابه التي قاتل بها في موقعة أم درمان ضد الغزاة حتى أصيب في فخذه بشظية من مدفع بقيت داخل فخذه عدة سنوات ظل يذكر جده هذا الذي كان يروي التاريخ ويدونه ويتحدث عن الأدب والفن والفكاهة ، وظل مع جده يذكر حاج موسى الرجل الذي أتى الى أم درمان من بعيد غير معروف وظل بها سنوات طوال يضرب البراميل السوداء غاضبا ثم يدور ويدور حول المدينة وكأنه يبحث عن عدو مجهول ثم يختفي حاج موسى ويظل جده يدون التاريخ حتى شاخ وعجزت يمناه عن مسك القلم وارتجف خطه الجميل على القرطاس ثم تلاشى كما يتلاشى النغم الجميل وراء الافق •

زكية وبت النور

في الطرف الشرقي للفضاء الكبير الواقع شرق شركة النور في أم درمان وشمال الضبطية وبالقرب من شجرة اللالوب التي يربط فيها موظف الحكومة حماره ، توجد شجرة لالوب كبيرة أخرى وتحت تلك الشجرة ترقد أمرأة ، وهو يذكرها دائما راقدة بالرغم من حركتها الدائمة الا أنهـا كثيرة الرقاد وبالقرب منها وحول الشجرة توجد أكوام الملابس القديمة والأواني العديدة التالفة والحجارة حول ساق الشجرة وبالقرب من المرأة وفي كل مكان ، كان اللون الاسود الداكن هو اللون الغالب على كل شيء حول المرأة ، حتى لونها هي قد استحال من الأوساخ والدهن والاتربة الى لون داكن لا هو بالأسود ولا هو بالأغبر . هذه زكية ، أو هذا اسمها الذي عرفت بـه ..

من أين جاءت وما هي مصيبتها التي دفعت بها الى هـذا النوع من الجنون الهادي ، لا أحد يدري وزكية هذه لا تشحذ الناس ولا تطلب شيئا من أحد ولكنها دائما موجودة في هذا المكان ورزقها متيسر فهي تأكل وتشرب وتعيش فقد درج بعض المحسنين على رعايتها والاستحسان عليها ولم تـكن تتحدث مـع أحد الا في بعض الحالات التي تصيبها فيها حالة جنون صاخبة كانت تسب وتلعن وكان صاحبنا كلما مر بها وهي في مكانها هذا وسمعها تصرخ أو تشتم وهي لا تشتم أحدا بالذات ولكنها تشتم شخصا مجهولا كلما مر عليها صاحبنا وهي في تلك الحال تذكر قول والدته عن زيادة البحر

وثورة المجانين في تلك الأيام ـ أيام زيادة البحر ـ لكنه لاحظ أن زكية قد تثور والبحر منخفض فهو يعرف زيادة البحر أو انخفاضه عندما يمشي الى منطقة النمر على النيل أمام مكان التلفزيون حاليا •

وهناك شخصية أخرى كان يربط عقله الصغير بينها وبين زكية فهما متشابهتان في الشكل وفي حالة الثورة والجنون ، كانت الشخصية الثانية شخصية (بت التور) ولا يدري كيف سميت ولماذا سميت (بت التور) امرأة مجنونة أيضا ولكنها لا تقيم في مكان واحد بل متجولة بين أحياء العباسية والبوستة والسوق وكانت ثائرة دائما يصيح الصبية خلفها (بت التور •• بت التور) وكانت ترميهم بالحجارة وتشتمهم بألفاظ بذيئة في بعض الاحيان ، وفي بعض الاحيان تبكي (بت التور) ـ رآها مرارا تجلس على الأرض وتبكي وتنتحب بصوتها الاجش المكسر الذي كان يذكره بصوت فاطمة رشدي الممثلة المصرية العظيمة التي كانت تجيد الانتحاب وبنفس الصوت الأجش المكسر والدموع السهلة الغزيرة •

كان عقله الصغير دائما يفكر ويفكر في أمثال زكية وبت التور ، امرأتان تبدو عليهما آثار جمال قديم غطته الأوساخ وشوهه الجنون والتعب والجوع ولكنه جمال ، وكان يفكر من أين جاءت زكية الى مكانها تحت شجرة اللالوب ومن أين جاءت بت التور وأين أهلهن ولماذا لا ترعاهن الدولة ، وكان يسمع وهو صغير الكبار يتحدثون عن روايات وأقاصيص عن ماضي بت التور وزكية وكيف أن احداهما كانت متزوجة وكانت سعيدة ثم أصابها الجنون لسبب لا يذكره فتركت كل هذا وهامت في الطرقات والاخرى جاءت من خارج أم درمان دفعها الى الجنون سر لا يعرفه ولكن الكبار يتحدثون عنه بلغة لا يفهمها •

ومرت الأيام وكبرت أو تعبت بت التور من الجري في الطرقات وصياح

الصبية وهو يذكرها وقد نحل جسمها تحت الملابس المهلهلة وهـي تبكي وتجلس وسط الطريق تحاول جمع الحجارة ، ثم اختفت بت التور فجأة ، افتقدها فلم يجدها ثم علم أنها ماتت ، ومرت الأيام وزكية في مكانها ، بدأ وزنها يزداد على عكس بت التور وطالت ساعات نومها وفي يوم من الأيـام مر بالقرب من المركز فوجد في الصباح كومة (الدلاقين) وكمية (الكرور) والحجارة والأخشاب ولم يجد زكية ، فسأل عنها وعرف أنها وجدت فـي الصباح ميتة في مكانها ، ترحم على زكية وترحم على بت التور وفي المساء ذهب مع شيخه الى جامع أم درمان وبعد صلاة العصر جلس الى حلقة من الحلقات التي يلقي فيها بعض العلماء درسا في الدين ، جلس وهو ساهم يفكر في زكية وبت التور حتى انتهى العالم من درسه قبيل صلاة المغرب فزحف عـلى الحصير بجسمه الصغير حتى اقترب من الشيخ وسأله عن المجانين وهـل يدخلون الجنة وكيف يقومون يوم القيامة ، سأله عن زكية وبت التور فرد عليه الشيخ بأن أمثال هؤلاء لا ذنب لهن وسيقمن صبايا جميلات ويدخلن الجنة ويتزوجن كما تتزوج الحور العين ، ولله في خلقه شؤون ، وكأنما ارتفع حمل ثقيل من عـلى جسمه الصغير وزال الهـم والحزن من قلبه الصغير وقال : (لله في خلقه شؤون) •



شيخ محمد علي أبشناب

« أستسمح استاذي الجليـل والمربي الاول الشيخ محمد علي أحمد الحاج أن أكتب عنه هذه الكلمات القليلة معبرا عن بعض ما تكنه الضلوع له من تقدير وإجلال سائلا الله أن يمد في أيامه وأن يثبتـه بقدر ما قدم لأبناء هـذه الامة عامة وأم درمان خاصة من تربيـة وعلم ومعرفة وإرشاد » .

شيخ محمد علي لمن لا يعرفه ـ وقليل ما هم ـ رجل ربعة بهي الطلعة حـازم في لين صارم في رقة لـه شارب مفتول يوحي بالرجولة والصدق رأيته أول مـرة عندما حضرت الى مدرسة العباسية الأولية في أوائل عـام ١٩٣٧ وأنا في أول عامي الثاني بالمدرسة وقف أمام الفصل بعد أيام من بداية الدراسة وبعد أن كتب لنا شيخ المقداد نشيد المدرسة على السبورة ، وقف شيخ محمد علي يلقننا نشيد المدرسة بصوته العميق الموسيقي ويقول : ـ

محمد علي يا ناظـــرنا　　　أنت أستاذنا الجليـــل

ويشير بكلتا يديـه كالمايسترو القدير ونحـن نردد وراءه نشيد المدرسة وكل واحـد منا يحاول ان يجعل صوته الصغير عميقا مؤثرا كصوت شيخ محمد عـلي .

ومنذ ذلك التاريخ أو تلك اللحظة ارتبطت الكلمتان في ذهني بأستاذنا الجليل شيخ محمد علي ولم أكن أتصور استاذا جليلا الا ورأيت شيخ محمد علي أمامي وفي خاطـري .

بـدأ شيخ محمد علي معنا لا كأستاذ أو معلم ولكن كأب وكمرشد جمعية فنية وكمربي وكصديق فقد كان يتحدث لنا ونحن أطفال بين السابعة والحادية عشر وكأننا رجال كبار يبعث في نفوسنا الرجولة والاعتزاز بمعهدنا الصغير وبوطننا أم درمان فقد لقننا نشيد أم درمان الذي كان يقول فيه :

بلدنـا بلدنـا أم درمان   أكبر بلـدة في السودان

وكان يعلمنا وكأنما الكتاب سيكون آخر مرحـلة لنا في الدراسة فقد علمنا البيطرة والصحة والأشياء والجغرافيا كل هـذا في مستويات ظلت معلوماتها في واقعها نفس المعلومات التي تكررت معنا ونحن في المدارس الوسطى ثـم بعضها تكرر معنا ونحن في المدارس الثانوية وخاصة علم الحساب الذي وصلنا فيه مرحـلة ممتازة وقد كان صاحبنا من المبرزين في هذا العلم وكانت طريقة شيخ محمد علي في درس العصر ـ فقد كان يدرسنا في الصباح وفي بعـد الظهر ـ كانت طريقته في تدريس الحساب أن يكتب عشرة مسائل عـلى السبورة وأول تلميذ يتمكن من حل تلك المسائل بأجوبتها الصحيحة يتسلم السوط والذي يليه يراقب الفصل وكل تلميذ يعجز عن حل مسألة يتقـدم الى حامل السوط ليأخذ كرباجا على يده وقد كان صاحبنا في كثير من الأحيان اما حاملا السوط أو مراقبا حتى لا يغش أحد التلاميذ من جاره ولـذا دفعت هذه الصفة كثيرا مـن التلاميذ الآخرين الى مصاحبته حتى لا يقسو عليهم عندما يرميهم حظهم العاثر تحت سوطه .

أما التاريخ فقد كان شيخ محمد بارعا في تدريسه فان صاحبنا لا ينسى قط كيف هجم المهدي عـلى جيش الأتراك عندما أرسل الى الجزيرة أبـا لاحضار المهدي فقد مثل التلاميذ تلك الواقعة بصورة رائعة حقا ، فقد قسم شيخ محمد علي تلاميذ الفصل الى مجموعتين وكانت المجموعة الأولى هي جيش أو جماعة المهدي التي كانت تحمل سيوف العود وحـراب الخشب

وتختفي بين كنبات الفصل من جانبي المسر الذي يفصل بينها على اعتبار أن تلك هي غابات الجزيرة أبا ، ثم جاءت المجموعة الثانية التي كونها شيخ محمد علي من التلاميذ الذين كان يغلب عليهم اللون الأبيض والذين ينحدر معظمهم من عنصر مصري أ وتركي مثل عبد العظيم حسين بك مصطفى وأحمد محمد علي بكار وعزت معني محمد حسن وغيرهم ، هذه المجموعة جاءت تتبختر وسط الأشجار وتأكل البسكمات وتتحدث بصوت مرتفع عن الدرويش المخبول وتقول (آه يا بلادنا يا مصر ...) وتضرب على الأرض بأكعابها وأحذيتها العالية وتحمل البنادق (الرمنجتون) وفجأة ينقض أنصار المهدي على هذه المجموعة بسيوف الحطب وحراب الخشب فيتصايح الأتراك (يا ماما ...) (خبر يه يا بلدينا) ثم تفر المجموعة نحو النيل فيلاقيها أنصار المهدي حتى يقضوا عليها كلية ويستولوا على الأسلحة النارية لأول مرة ، هذه الصورة الرائعة الحية التي صورها شيخ محمد علي ببراعة ألفاظه وعمق خياله لأولئك الصبية الصغار فاقت في روعتها عند صاحبنا ما صوره فيلم غردون بكل ما أوتي مخرج الفيلم من براعة وامكانيات .

ولم تكن مدرسة العباسية متفوقة على بقية مدارس أم درمان الأولية في الدروس فقط ولكنها كانت متفوقة في الرياضة وفي التمثيل والموسيقى والرسم فقد كان لدى شيخ محمد علي مسرح صغير هو عبارة عن ظل المدرسة في الصباح من جانبها الغربي تجلس المدرسة حول كرسيه في دائرة يترك وسطها خاليا ثم يقوم التلاميذ بتمثيل الروايات ويروون النكات عن ود نفاش وكورو وجحا وغيرهم من الشخصيات الفكاهية وكان التلاميذ يشترون مجلة البعكوكة المصرية حتى يحضروا للمدرسة بآخر النكات وأظرفها .

ومن مبتكرات شيخ محمد علي تلك الصور التذكارية التي يلتقطها للفصول في المدرسة ويجلس هو على كرسيه وسط الفصل ويجلس المدرسون عن يمينه وعن شماله ويصطف تلاميذ الفصل في صفوف متدرجة من أعلى

حتى يجلس أقصر التلاميذ أمامه القرفصاء في صف منتظم ومرت السنون وكبر التلاميذ وتفرقت بهم المسالك وانطبقت عليهم قصيدة أمير الشعراء شوقي (مصائر الأيـام) التي قال في بعض أبياتها :

وكم منجب في تلقي الدروس   تلقى الحيـاة فلـم ينجب

وانتهى بصاحبنا عامه الرابع بمدرسة العباسية أو كاد وهو ينتقل من فصل الى فصل دون عناء أو جهد سعيدا بمدرسته يقضي فيها من الوقت أكثر مما يقضيه في بيته حتى ان شيخ محمد علي رشحه هو واثنين من أنجب تلاميذ الفصل ليذهبا الى (بخت الرضا) حتى يصبحا مدرسين بالمدارس الأولية لمـا لاحظه فيهم من حب للمدرس وملكة في التدريس ونجابة واجتهاد الا أن والدة صاحبنا رفضت أن تسمح لـه بالذهاب الى بخت الرضا لصغر سنه ولموت والده الذي لـم تمض عليه سنة وهـو أكبر اخوانه فآثـر دخول المدرسة الوسطى وهو غير راغب فيها وعند الجلوس لامتحـان الدخول بمدرسة أم درمان الوسطى ــ وهي المدرسة الوسطى الحكومية الوحيدة في أم درمان آنذاك ــ والتي يتقدم اليها كل تلاميذ المدارس الأولية في أم درمان كان نصيب مدرسة العباسية اثنين وأربعين تلميذا من ثمانين تلميذ قبلتهم بمدرسة أم درمان الوسطى ــ وهي المدرسة الوسطى الحكومية الوحيدة في نتيجة أكثر من مشرفة لناظر يعتبر من أعظم ما عرف التعليم الاولي في السودان من نظار ، وكلما مر صاحبنا أمـام تلك الفصول الثلاث التي كانت تسمى مدرسة العباسية الأولية تصور تمثالا ضخما من البرونز ذو قاعدة رخامية لشيخ يرتدي القفطان والفرجية عريض المنكبين مفتول الشارب وعلى خديه من خلف شاربه المفتول ولحيته المنتظمة خطت شلوخ الجعليين التي كـان يفخر بانتمائه لهـا على أنه من سلالة العباسي عم رسول الله صلى الله عليه وسلم . اللهم مـد في أيامـه وداوم لـه الصحة والعافية بقدر ما قـدم لوطنـه وأهـله .

مدرستنا العبّاسيّة

في الركن الجنوبي الشرقي لمدرسة أم درمان الوسطى (أو الثانوي العام) تقوم ثلاثة فصول ليست لها مظلة او برندة وتفتح شبابيكها على الزقاق الخلفي للمدرسة وهي منخفضة بعيدة عن مبنى المدرسة القديم المرتفع وكأنها بنيت لتكون مخازن عندما حضر اليها صاحبنا لأول مرة كانت تسمى مدرسة العباسية الأولية ، وقد تساءل كثيرا أول الأمر عن تسميتها بمدرسة العباسية وهي ليست في حي العباسية والتحق بالسنة الأولى تحضيري ــ كما كانت تسمى آنذاك ــ وقد أحضره خاله الضابط المتقاعد لأن أباه لم يكن يؤمن بالمدارس بل على العكس فقد كان يظن أنها مفسدة للصبية وأن حفظ القرآن وطلب الرزق الحلال في التجارة خير من العمل في الحكومة ؛ وقد كان والده يقول دائما ولم يكن يفهم قوله وهو في تلك السن ــ أن أموال حكومة الكفار تجمع من رخص (ستات الانادي) اللواتي يصنعن المريسة ومن غيرهن ممن يعملون الحرام ولذلك فان مال الحكومة حرام ومن يأكل الحرام لا يستجاب دعاؤه »

ومن أول يوم دخل فيه مدرسة العباسية أحبها ولكنه قبل أن يتم العام فصل منها لأنه أخرج الترام من القضيب فآثر البقاء في فناء المدرسة حتى أتم العام ثم التحق بها مرة أخرى ؛ ولحبه للمدرسة ولما قضاه من سنوات في الخلوة كانت دروس المدرسة لا ترهقه قط ولكنه في نهاية عامه الأول وقف الطلبة أمام الفصول في شكل مستطيل أحد اضلاعه المدرسة وقبالتها فصلان

هما السنة الثانية والثالثة ومن جهة الشرق وقفت السنة الرابعة أما هو فيذكر أنه وقف من جهة الغرب حيث تقف السنة الأولى وجاء المدرس ليقرأ النتيجة فكان الأول عمر حسن طـه وهكذا صار المدرس يقرأ الاسماء حتى وصل الى العاشر وفي كل مرة يصفق الطلبة حتى العاشر وكان هو العاشر وعندما أخـذ شهادته من المدرس وجد أنه قد تحصل على مائة من مائة في الحساب ومائة من مائة في العربي وستين من ستين في الديانة وستين من ستين في القرآن وكان المجموع ثلاثمائة وعشرون مـن ثلاثمائة وعشرين فأصابته الدهشـة والحزن في آن واحد ولم يستمع الى بقية الأسماء ولكنه صار يسأل لمـاذا لم يكن الأول فلم يجد جوابا حاول سؤال المدرس فرد عليه المدرس (مبروك أنت في العشرة الأوائل) حاول يسأل عمر حسن طـه نفسه فلم يجد عنده الجواب وانتظر طوال العطلة حتى عاد الى المدرسة ليجد أن الناظر شيخ محمد خير وجميع المدرسين قد نقلوا وحضر الى المدرسة ناظر جديد له حمار أبيض ووجه عريض وشارب مفتول كبير عرف في نفس اليوم أنه يدعى شيخ محمد علي أحمد الحاج وأنه حضر من مدرسة المسالمة ومنذ أن وقع بصره على شيخ محمد علي نسي ما أصابه من غبن في السنة الأولى وأحس بأنه قد دخـل مدرسة جـديدة ٠

كانت الدراسة في السنة الأولى تبدأ في الصباح وتنتهي في التاسعة أو التاسعة والنصف ويعود الصبية الى منازلهم أما في السنة الثانية فقد صارت الدراسة تبدأ في التاسعة والنصف أو العاشرة وتنتهي في منتصف النهار ومـا ذلك الا لأن بالمدرسة ثلاثة فصول فلا يدخل تلاميذ السنة الثانية الا بعـد خروج تلاميذ السنة الأولى وعلم فيما بعد أن المدارس الأولية أو ماكان يسمى الكتاب كانت ثلاثة سنوات فقط ينتقل الصبي بعدها للمدارس الابتدائية أو الوسطى (فيما بعـد) ٠

لقد احتار صاحبنا في أمر هاتين الساعتين في الصباح فهو يحضر الى فناء المدرسة في السابعة والنصف ولا يدخل الفصل الا في التاسعة والنصف أو العاشرة ولكنه سريعا ما اكتشف انهما ــ أي الساعتين ــ لا يكفيان لما يفعله الصبية فيهما فقد اكتشف العابا جديدة للصبية بجانب كرة الشراب ، هناك لعبة (قلب السنة) وهي لعبة يحاول الصبية فيها قلب سنة الريشة العربية أو الافرنجية بسنة أخرى فاذا تمكن ربح قطعة من لون الشمع أو الاردواز أو القلم الصغير واذا خسر تولى الآخر عملية القلب وهي نوع من المقامرة بين الصبية الصغار وقد تمكن من اتقان اللعبة في وقت وجيز وصار يملأ علبة الألوان الصفيح والتي كانت في الماضي علبة للسجائر الانجليزي (أرداث) ، صار يملأ علبته بألوان الصبية ولكنه ذات يوم كره هذه اللعبة لأن والده قال له ان المقامرة حرام وان ما يكسب منها حرام وبدأ هواية أخرى بمجرد معرفته قراءة القصص المبسطة وفعلا بدأ هواية جديدة هي قراءة القصص للأطفال فقرأ (عسكري صفيح شجاع) وبدأ قراءة كتب كامل كيلاني التي لازمه حبه لها حتى قرأها جميعا في مراحل دراسته المستقبلة .

وصل الى المدرسة فريق جديد من المدرسين يختلفون كل الاختلاف عن الفريق السابق ، هناك شيخ محمد علي الناظر وهناك شيخ المقداد اسحق ابن الشيخ اسحق حمد النيل سليل الولي الشهير المدفون غرب أم درمان وهناك شيخ أبو القاسم الذي ينحدر من بيت الهاشماب وهناك شيخ محمد نور الحاوي الذي يعلمك ويرفه عليك وهناك الشاب الصغير الذي لا يلبس الفرجية أو القفطان بل يحضر بالجلباب والعمة فقط والذي نسميه تجاوزا شيخ مرتضى وهو كما عرف الصبية فيما بعد قريب شيخ محمد علي نفسه ، كلهم نشاط وحماس ورغبة في العمل وحب للمدرسة وفي أول يوم يدخل فيه الصبية الى الفصل كتب لهم على السبورة بعد التاريخ الذي يذكره صاحبنا

جيدا يوم كذا شهر كـذا سنة ١٩٣٧ ، كتب لهم بعد هـذا التاريخ (نشيد المدرسة) وتحته كتب :

مـدرستنا العباسيـة   أنت معهدنا الجميـل

قصيدة طويلة من شعر بسيط لـه موسيقى خاصة تنفذ الى أعماق الصبية الصغار ثم مرت الأيام الاولى في المدرسة وصار الناظر يسر عـلى الفصول يحفظهم موسيقى النشيد الذي صار التلاميذ ينشدونه كل صباح قبل دخول الفصول ٠

كان الصبية في السنة الأولى يجلسون على بروش على الارض وأمامهم كنبات طويلة يجلس خلف الواحدة منها أربعة أو خمسة صبية أما في السنة الثانية فيجلس التلاميذ على كنبات من الخشب أما في الثالثة والرابعة فينفرد كل تلميذ بمقعد منفصل خلف كنبة خشبية واحدة ٠

ولا ينسى قط تقسيم الفصل الى مجموعات من ثمانية أو تسعة تلاميذ لنظافة الفصل وكيف كان يذهب مبكرا للمدرسة يوم النظافة فيشترك مـع التلاميذ في مجموعته في كنس الفصل من الأتربة المتجمعة فيه ومن قطع الورق والطباشير وكيف أن بعض الصبية كانوا يغيبون دائما عن واجب الكنس وكيف كان يقدم أسماء الغياب للناظر الذي يتولى معاقبتهم فقد كان رئيس الكنس في مجموعته ٠

ومنذ وصول المجموعة الجديدة من المدرسين للمدرسة وجدت روح جديدة بالمدرسة لا في الدروس فقط بـل في كل شيء : في الرياضة فقد أصبح للمدرسة تيم كرة ممتاز يتبارى مع كل المدارس الأولية فيفوز عليها وكانت بالمدرسة فرقة موسيقية بالصفافير وكانت تعزف (عـزه في هواك) ونشيد المدرسة وغير ذلك من أغاني أيام زمان ، كما كانت هناك فرقة تمثيل لا ينسى

فيها صورة عوض ذلك الصبي الموهوب الذي كان يمثل دور الطفل الأعمى فيغمض عينيه ويحرك ذراعيه كأنه يود لمس شيء أمامه ثم ينشد : ــ

يا أمّ ما شكل السماء   وما الضياء وما القمر
بجمالها تتحدثون   ولا أرى منها أثر

فكانت عيناه تذرفان الدمع على منظر ذلك الطفل الأعمى فقد كان عاطفيا وخياليا منذ حداثته • أما عوض هذا فلم يحترف التمثيل ولم يدخل الوسطى بل عمل في النجارة وظلت علاقتهما وصداقتهما طوال السنين بالرغم من اختلاف الطريق ، حتى مات عوض فجأة فأحزنه وآلمه وتذكر قصيدة أمير الشعراء شوقي التي مطلعها :

ألا حبذا صحبة المكتب   وأحبب بأيامه أحبب
ويا حبذا صبية يسرحون   عنان الحياة عليهم صبي

وآخرها :

الى أن فنوا ثلة ثلة   فناء السراب على السبسب

★ ❋ ★

فهـــرس

الدار السودانية للكتب
الخرطوم - شارع البلديّة
ص ب (٢٤٧٣) تلفون (٨٠٠٣١)
برقياً : توزيعدار

٣٠٠ مليم